فكرية شحرة

مجموعة قصصية

فتيات الغربة

مفردات Mophradat

مجموعة قصصية

فتيات الغربة

فكرية شحرة

الطبعة الأولى

اسم الكاتب: فكرية شحرة

رقم الإيداع: ٨٩٠٧ - ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: 978- 977- 6968- 37-0

تصميم الغلاف: قلب الدين البحري

المثقف للنشر والتوزيع

٠٠٢٠١٠٠٢٦٨٨١٨٨

Info.mothakf@gmail.com

تم إنجاز فتيات الغربة بدعم من مفردات برنامج "التفرغ للكتابة" ٢٠٢١م"

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى كل فتاة لم تصل..

إلى كل قلب فقد شغف الوصول

وكأن الوصول مؤذن بالانتهاء

قد لا تكون مصيبتنا في الحياة

تأخرَ ما نشتهي في المجيء،

وإنما حدوث تلك التي لا نريد مبكرًا.

الأمور الجميلة لا تأتي متأخرة

نحن فقط نعرف قيمتها متأخرين!

ثلاث كعكات

عندما استيقظت "رضا" صباحًا منتشية من ساعات النوم الطويلة تذكرت خليط الأحلام والرؤى التي شاهدَتْها في منامها؛ لم يعدْ واضحًا سوى تلك القبلة التي حظت بها!

لا تدري مَن ذلك الذي قبلها في الحلم، لكنها ما زالت تشعر بدفء أنفاسه وضغْطِ شفتيه، وتلك الطريقة التي عض بها شفتها السفلى برقة؛ توقفت ساهمة وهي تمرر إصبعها على فمها مبتسمة لنفسها بحرج؛ ألهذه الدرجة هي عطشى إلى قبلة حب حتى تراها في أحلامها؟!

خطر في بالها ذلك الإحساس حين لَحِقَت بخديج عند باب الشقة وهي مغادرة إلى عملها، مدت إليها كيس الفطائر، وعوضًا عن أن تأخذه منها جذبتها من يدها إلى صدرها، وطبعت قبلة خاطفة عند طرف أذنها.

يومها تملكتها رعدة باردة في ظهرها، ليس لتلك الطريقة الرومانسية في جذب خديج لها والتي ذكرتها بحرمانها من علاقة عاطفية مع رجل يصنع هكذا معها،

لا؛ بل لطريقة خديج في استنشاق رقبتها بذلك العمق للحظة خاطفة.

ما إن ابتعدت خديج ممسكة كيس الفطائر حتى ابتسمت رضا ببلاهة محاولة ألا تشعرها بما أحدثت فيها تلك الحركة العاطفية من دهشة.

انصرفت خديج وعادت هي إلى خيالاتها الحزينة وجفاف العاطفة الذي جعلها تتصرف بسذاجة أمام وداع صديقتها.

"ألهذه الدرجة أنا بحاجة إلى عناق وقبلة؟!"

أطلقت تنهيدة مخنوقة وتوجهت إلى المطبخ، لديها اليوم ثلاث طلبيات لثلاثة أنواع من الفطائر، لم تعدْ تدري هل تفرح أم تحزن حين تجد طلبيات جديدة على مجموعة الواتس الخاصة بعملها.

حقًا هي بحاجة إلى المال كي تعيش، لكنَّ عملَ الفطائر والمعجنات أمرٌ مرهق كثيرًا، خاصةً إذا كانت ثلاثة أنواع كاليوم؛ ستعجن ثلاث مرات ثم تخبزهن في الفرن الصغير البطيء الاشتعال، سيأخذ الأمرُ وقتًا مضاعفًا؛ في النهاية تقوم بتوصيلهن أيضًا طازجاتٍ إلى الزبونات الثلاث، فلم تفكر بالاستعانة بشخص للتوصيل حتى الآن.

اكتفت بعدد محدود من الزبائن على مجموعة الواتس خاصتها، وتقوم بإيصال طلبياتها بنفسها توفيرًا لكل قرش.

ما تتحصله لا يكاد يكفيها مع اضطرارها لإرسال مبلغٍ شهري إلى أمها بعد أن تنصّلَ عنها أخوها هي الأخرى، بعد تخليه عنها وعن مصاريف دراستها بعد موت أبيها.

وتنهدت وهي تتذكر موت والدها الذي حوّل حياتها من طالبة جامعية متفوقة إلى فتاة عاملة في الغربة.

لا تدري حقيقةً هل هي محظوظة بمتاعبها هذه والقيود الكثيرة التي تلتزم بها واقتصار أحلامها على توفير مبلغ يكفي لشراء تذكرة لجلب أمها، أم خديج زميلتها في السكن هي المحظوظة بانسلاخها من كل قيد ومسؤولية رغم ماضيها التعس جدًا.

لقد تحملت خديج في صغرها الكثير من المشاق والوجع، لتصبح بهذه الشخصية الفريدة.

عانت من تبعات زواج مبكر وهي طفلة، لينتهي بطلاقها بحكم محكمة حين انتزعها عمها من والدها الظالم، فقد زوجها وهي في الثانية عشرة؛ ليخلِّصَ زوجته الثانية من وجودها غير المرغوب به؛ عانت كثيرًا المسكينة بزواجها، فقد كان اغتصابًا وليس

زواجًا؛ حين انتزعها عمها بمشقة لم يُبقِ عليها سوى ثلاثة أعوام ليزوجها مرة أخرى لصديقه كبير السن، لتبدأ معاناتها النفسية مرة أخرى وتقرر الهروب إلى بيت والدها.

لم يخلصها هذه المرة سوى أخيها الذي كبر وأصبح قادرًا على إرغام زوجها ليقوم بتطليقها؛ أخيها نفسه الذي قام بتزويجها من صديقه المريض نفسيًا، ففقدت كل معاني الأمان بارتباطها به!

المسكينة مرت بسلسلة من الطلاق والزواج والمتاجرة بها حتى جاء اليوم الذي قررت فيه ترك البلاد بأكملها وسافرت إلى القاهرة منذ سنوات طويلة؛ التقت رضا بها مؤخرًا، وشاء القدر أن تسكنا في شقة معًا برفقة سلمى الساكنة الثالثة هنا؛ كي يتسنى لهن دفع الإيجار.

خديج تتشبه بالرجال كثيرًا رغم أنها تمقتهم جميعا.

تقص شعرها قصيرًا جدًا، وترتدي بناطيل جينز وقمصانًا رجالية، وتتصرف أحيانًا مثلهم.

لقد كانت في الحقيقة تكره أنوثتها التي تبدو نقطة ضعف أمامهم، لقد قالت لرضا مرة:

- لقد تعلمت كيف أكون رجلًا في هذه الحياة، ونسيت أن أكون أنثى بعدها.

كل أحلام خديج تنحصر في الحصول على لجوء في إحدى دول أوربا؛ لهذا تعمل مع المنظمات الحقوقية منذ وقت طويل، ويمكنها من أجل تحقيق حلمها هذا أن تفعل أي شيء.

أما سلمى فهي على العكس تماما من خديج، تبدو أنها تفيض أنوثة بطريقة متعمدة ومثيرة للضيق، دائمًا ما تصطدم بخديج في معارك طاحنة داخل الشقة بسبب سلوكها المشين الذي لم يعد خافيًا عليهما بعد أن اكتشفت خديج دواءً في حقيبتها.

كان الدواء في حقيبة سلمى مانعَ حمل.

فكرت رضا يومها: لعل الأهل كانوا محقين في التفكير أن الدفن هو أفضل طريقة للحفاظ على شرفهم إذا كانت كل الفتيات كسلمى..

لقد تخيلت رضا نفسها رجلًا في عائلة سلمى يجدها قد لوثت شرف القبيلة كلها على فُرش رجال من جنسيات كثيرة.

"أظن أن القتل سيكون بالنسبة له فكرة رحيمة"

هكذا تفكر خديج أيضًا، رغم إشادتها بحياة الغرب وممارساتهم التي تسميها حرية شخصية يعاقب القانون كل من يتدخل فيها بأي فعل لا يعجب صاحبها.

صارت خديج تعاني تناقضًا عجيبًا في شخصيتها، وتصدر أحكامًا مزدوجة ربما تكون ناتجًا لتقليدها المفرط للرجال.

تساءلت رضا في نفسها:

- ألهذا ترى اللجوء حلمًا لتعيش حريتها الشخصية؟! أم هو حلم كي تتسنى لها فرصة أن تحيا كامرأة حرة وشريفة؟!

ذات يوم نشبت مشادة بينهن كانت الفاصلة، صرخت خديج في وجه سلمى:

- يوجد مواعيد محددة للعودة إلى هذا البيت، لن نسمح لك بتحويله إلى ماخور لزبائنك يا حقيرة.

أجابتها سلمى بسخرية:

- لا تنسيا أني أدفع عنكما الإيجار لشهور كثيرة شفقة بكما ومن أجل صداقتنا.

ردت خديج بصوت هادر:

- لا تدفعي لنا شيئًا من مال مؤخرتك، نفضل أن نمد أيدينا للتسول عوضًا عن سوق العمل خاصتك.

في نهاية الأمر جمعت سلمى أشياءها، وباتصال قصير حضرت سيارة فارهة حملتها وكل أشيائها عديمة الشرف كما أسمتها خديج.

تبقى على خديج التفكير فيمن تشاركها ورضا دفع الإيجار، وعوضًا عن ذلك دعت رضا إلى الخروج لاستنشاق الهواء بعد المشادة التي حدثت، ولأن رضا لا تجد وقتًا أو أحدًا يصطحبها إلى مثل هذه الأماكن وافقت بسرور.

على كورنيش النيل سألتها خديج وهما تحتسيان الشاي:

- ما أبلغ أمنياتك يا رضا؟

تبسمت رضا بخجل وهي تسرح بنظرها بعيدًا محدثة نفسها:

"كل ما تتمناه هو رجل..نعم، رجل يسترها في مجتمعٍ هذا قانونُه النافذ؛ رجل يكون بديلًا عن الأب الذي مات، والأخ الذي تخلى، والابن الذي لم يأتِ..

تريد رجلًا يحميها من الرجال وهذا الزمن الذي امتلأ بالخوف من كل شيء وكل شخص؛ حتى النساء..

رجل يجذبها إلى صدره كلما تعبت أو تهاوت أو جرفها سيل الوحدة".

ضحكت متوقعة رد خديج سلفًا:

- ابن الحلال الذي يسترني، وأن أجلب أمي لتعيش معنا.

تأملت ملامح الضيق على وجه خديج وهي تضيف:

- آه يا خديج، ما أجمل أن تسيري بين الناس وهناك رجل يمسك بيدك كأغلى ممتلكاته! لن يرفع أحد نظره إليك أو يتحرش بك وأنت في معية رجل وفي حمايته.. انظري حولك؛ ما أجملهم متناثرين كالورود! كل اثنين معًا.

وتضحك مجددًا:

- كلهم اثنان: ذكر وأنثى، لا يوجد منحوستان سوانا وتلك العجوز مع كلبها.

فترد خديج بسخرية:

- هؤلاء ذئاب ونعاج يقومون بطقوس الافتراس فقط.

فترد رضا:

- لا يوجد ذئاب سوى في رأسك، هؤلاء أزواج أو مخطوبون أو عشاق.

- فعلًا؛ لا يوجد ذئاب، لو استطعنا النظر إلى محتوى رؤوسهم فلن نجد سوى ضباع ونعاج؛ الذئاب أعلى قدرًا من تفكير البشر..

تكمل خديج بسخرية مريرة:

- أتيت بك إلى هنا من أجل عرض أمر عليك..

وأطرقت بقلق:

- انظري إلى وجهك يا رضا، ماذا فعلت به نار الفرن وأنت تخبزين الفطائر لغيرك؟ هذا الوجه الجميل يحق له أن يصافح هواء أوروبا المنعش، وأن يعيش معززًا مكرمًا براتب لجوء هناك.. يمكننا تدبر لجوء بأبسط الأمور، فقط تقبلين بالأمر.

ردت رضا بقلق وشعور غريب بالرهبة يلفها:

- أي أمر تقصدين؟

ردت خديج بصوت حاولت جاهدة أن يخرج طبيعيًا:

- أن تقبلي تسجيل اسمينا كزوجين؛ المنظمات تقبل هذا النوع بسهولة وسرعة.. فكري في الأمر، سنبدو أمامهم زوجين مثاليين وليس مثليين، ولن يضرنا ذلك شيئًا في الواقع.

لوهلة لم تفهم رضا ماذا تعني خديج، لكنّ مشاهد الذكرى اكتسحت رأسها كأعواد ثقاب مشتعلة؛ شعورها ليلًا بتلك القبلة، عناقات خديج الغريبة.

نهضت من على كرسيها وهي تشد قبضتها بقوة مخيفة قائلة بصوت خفيض لكن مخيف:

- أنت مريضة فعلًا، إحدانا يجب أن تترك الشقة، لا أريد رؤيتك مرة أخرى.

لثلاثة أيام ظلت رضا حبيسة لحجرتها حتى تأكدت من ترك خديج الشقة بعد رسالة أعلمتها بذلك.

بعد شهور علمت رضا أن سلمى سافرت إلى دولة الإمارات مع خطيب جديد لها، وأن خديج وافقت على عقد زواج صوري على أن تكون فيه الأنثى من أجل اللجوء، وهذا أمر جيد عوضًا عما عرضت على رضا ذلك اليوم.

أما رضا فظلت تخبز الفطائر وتسعى لادِّخار المال بعد أن وجدت رفيقتي سكن؛ صديقتين كان أبلغ أحلامهما النجاح في كلية الطب والهندسة بجامعة القاهرة.

زوايا مختلفة

كعادتها إذا اضطرها الجوع والوقت لتدخلَ مكانًا عامًّا لتناول وجبتها، تنزوي في ركن بعيد عن الأنظار بقدر استطاعتها، تتكوم على نفسها جيدًا، وتتناول طعامها من تحت نقابها السميك.

لم تستطعْ هذه المدينةُ الملتحمة ببعضها حلحلة قناعاتها حول مظاهر الستر والحشمة التي قدمت بها من بلدها، حتى صديقاتها اللاتي يشاركنها ارتداء النقاب والجلباب تختلف عنهن في التعامل والسلوك.

ترفض أن تأكل أمام الناس إلا اضطرارا، لا تضحك في الشارع وتخرج صوتها صارمًا من حنجرتها إذا اضطرت للحديث مع الزملاء، تمشي بوقار كشخص تقلّد درعًا حديديًا.

في ركنها في المطعم المزدحم تلفتت يمنة ويسرة، في أعماقها تخشى أن يراها أحد أبناء بلدها في مطعم للوجبات السريعة فيظن بها الظنون، لكنَّها أملت أن تجد فتاة مثلها تشاطرها الطاولة كنوع من درء الشبهات كما تسميها.

حقًا هنا لم يعدْ يوجد شيء يُسمَّى شبهات، فالكل يصنع ما يحلو له تقريبًا، وعلى الشخص أن يخفيَ استهجانه

أو امتعاضه داخل حدود جلده، لكنها لن تسمح لهذه البيئة أن تغيّرَ قناعاتِها في الحشمة والتصرف بحياء.

ولمحتها من بعيد..

غادة، آخر من تتمنى مشاطرتها طاولة الأكل أو الجلوس في أي مكان!

لقد كانتا صديقتين مقربتين فيما مضى، لهما ذات الطموح والتطلع العلمي.

تعرفها من أيام الجامعة في وطنها، فتاة صاخبة من دُعاة التحرر والمساواة بالرجل.

الفتاة التي لم تكنْ تخشى رفع نقابها في كافتيريا الجامعة أو أي مكان يتسنى لها إيجاد عذر فيه، صوتها الرفيع يزاحم أصوات الطلبة، وضحكاتها تسمع عن بعد، عندما كانت تنتقد تصرفاتها تصيح بها قائلة: "أنا فقط أحاول أن أعيش الحرية الممكنة لي هنا".

وهي هنا أيضا تعيش الحرية الممكنة، إلا أنها حرية فضفاضة جدًا بخلاف بلدهما، سنحت لها أن تنزع حجابها كاملًا وليس النقاب فقط، صارت تسير بشعرها وتحشر ساقيها في بنطال جينز ضيق مثل غالبية بنات البلد هذا تمامًا.

"لقد كانت الحرية في نظرها هي التحرر من ثيابها وخجلها" همست هند لنفسها بامتعاض.

عندما التقت هند بغادة في القاهرة بعد أكثر من عامين في سفرها لتحضير الدكتوراة لم تصدق ما رأت من تغيرها وانفتاحها، كانت غادة قد سبقتها في السفر، وافترقتا بافتراق طريهما في الحياة رغم كل الود والصداقة التي جمعتهما طيلة أيام الجامعة؛ لهذا تتمنى ألا تلمحها غادة في هذا المطعم المزدحم وألا تجمعهما طاولة، فرفقة غادة ستسيء إلى سمعتها بلا شك، إنها تتجنب رفقتها منذ وصولها هنا، وتتحاشى صحبتها أمام الآخرين خاصةً أبناء بلدهما، فرفقة أمثال غادة شبهة أيضا.

لكنها رأت غادة تقبل نحوها والدهشة تملأ وجهها البشوش..

***

لم تصدق غادة عيناها وهي تلمح هند في تلك الطاولة المنفردة.

من السهل معرفة هند رغم أن لا شيء يظهر من جسدها سوى عينيها ونظرتها المتعالية.

لقد كانتا صديقتين مقربتين في بلدهما تضمهما نفس الجامعة؛ لذا هي تعرف هيئة هند وميولها المتشددة في أسلوبها في الحياة وحتى تعاملها مع الآخرين.

تبسمت غادة وهي تفكر أنها تتحاشى رفقة هند مرغمة، فرقابة من نوع آخر غير رقابة العادات والتقاليد وفضول الناس، إنها رقابة تلاحق هؤلاء المتشددين في كل تحركاتهم ورفقتهم؛ خوفًا من عدوانيتهم نحو مظاهر التحضر والتمدن، كما أنهم في نظر الكثير متخلفون في تفكيرهم ونظرتهم للحياة، مصيبتهم أنهم يرون الجميع على خطأ، ويحاولون إصلاح الناس وفق نظرهم فقط.

وتنهدت مبتسمة "أليس من المتعب أن تظل تحيط نفسك بقوقعة الاختلاف عن الآخرين، ومعاملتهم كعصاة وأنت الناجي الوحيد" هكذا هي نظرة هند المتعالية.

فيما غادة ترى نفسها فتاة تسعى لتمثيل الجانب المشرق في بلدها، ولن تُوصف بالتخلف والرجعية أو الانغلاق كهند أبدًا.

تنازعتها الرغبة بين الذهاب إليها وإلقاء التحية، فقد كانتا رفيقتين لسنوات الجامعة، وبين الرغبة في ادِّعاء أنها لم ترَها أو في أقل الظنون لم تتعرف عليها.

وحدثت نفسها مبررة تردُّدِها: نعم، يوجد تحت سماء هذا البلد الفتاة المتلفعة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها، لا يُرى سوى جفنيها يرفان، وتوجد المتحررة التي تُبْرِز أكثر مما تخفي، وهذه حرية شخصية مكفولة للجميع، لكنَّ هناك نظامًا صارمًا ينظر بريبة لأمثال هند وهذه النظرة كفيلة لتتحاشاها غادة"

حسمت ترددها قائلة لنفسها: لا بأس من إلقاء تحية في هذا الزحام، فلا تعد رفقة ملفتة يمكن أن تسيءَ لفتاة مثلي.

نهضت من مقعدها ببشاشة واندهاش مصطنع وهي تتقدم من هند قائلة بصوت خفيض: "هذه أنت يا هند، ما أحلى الصدف يا صديقتي!"

للحظة سقط تصنُّع كلتيهما أرضًا، وهما تعتنقان بعضهما بحنين، ربما هي رائحة الوطن التي جمعتهما، وربما لصداقة قديمة جميلة رغم تناقضهما.

كانتا تتحدثان في نفس الوقت بارتباك كما يحدث عادة حين تلتقي البنات دون توقع، تضحكان لجملٍ لا تسمعانها جيدًا، لكنه شعور بالسعادة رغم عدم الارتياح.

سردت كلٌ منهما آخر أخبارها، وما استجد عليها في الحياة، وتذاكرتا زميلات التقت كلتاهما بهن بمحض الصدف في الغربة.

قالتا كل شيء يمكن أن يقال، وتلك الأشياء التي لا تقال تبادلا لها نظرات حائرة.

انتهت فرصة الغداء وكان ينبغي أن تنصرفا وتضاعفت حيرتهما هل تنصرفان معًا؟! تعرف هند وغادة أيضًا أن كثيرًا من الزملاء يختلطون ببعضهم رغم اختلاف الميول والآراء والنزعات، لكنهما مثقلتان بفكرة الاغتراب أكثر من أي شيء.

جال في خاطر كلٍّ منهما وهما تتصافحان وتفترقان:

"هل كان هذا الحرص على أن تبتعدا عن بعضهما سيكون بهذا التطرف لو كانتا في وطنهما؟! أم تسقط المخاوف من نظرة الآخرين وتقييمهم؟

إخراج فاشل

وهي تسرع الخُطى إلى فتحة المترو لا تدري كيف التفتت نحو العجوز الجاثمة على الرصيف وهي تفتح الصرة المعلقة على صدرها وهي تمر بمحاذاتها تماما، وللحظة واحدة لمحت داخل الصرة القماشية الداكنة، كان ما لمحته كافيًا لتتعثر في خطواتها التي تباطأت تدريجيًا في زحام المارة على رصيف شارع التحرير في الدقي.

وهي تنزل درجات المترو لم يغادرها منظر الأوراق المالية المكدسة في صرة العجوز.

تحدث نفسها "لقد كانت أوراق لعملة المئتي جنيه، والمئة أيضًا، وكثيرة جدًا".

لقد سمعت حول قصص الشحاذين الذين يملكون عقارات وأموالًا طائلة من وراء التسول تُكتشَف عقب موتهم، ولم تكن تقتنع بها رغم رواجها مثل الأساطير.

لم تستوعب كيف يصرف المرء وقته في التسول طوال حياته على الرصيف في هيئة مزرية ولديه أموال كثيرة قد جمعها خلال فترة من حياته، ويمكنه أن يتمتع ما تبقى من عمره في التسوق أو التنزه!

حدثت نفسها : لو كنت شحاذة قد جمعت مبلغا كبيرا فسأحرص على التمتع به عوضا عن تركه للورثة بعد أن أموت على الرصيف مثل الكلاب الضالة..

يوجد المال لإنفاقه في الظهور بشكل لائق والتمتع بالحياة هذا ما تفهمه.

تبسمت لأفكارها وهي تحشر جسدها بين الأجساد التي تتسابق للحاق بالمترو قبل أن تُغلقَ أبوابُه.

هي على سبيل المثال تدرس الإخراجَ التلفزيوني هنا في جامعة القاهرة، وتحرص كثيرًا أن تتفوق في أناقتها على زميلاتها المصريات أكثر من حرصها على التفوق دراسيًا، وهذا يكلفها كثيرًا للأسف، لكن لا مال كافٍ لذلك، تبسمت مرة أخرى وهي تفكر أن المقارنة بين تفكيرها وتفكير الشحاذة الساذج ظالم جدًا.

في نهاية اليوم وهي عائدة إلى السكن مرهقة ومتعرقة من الزحام والحر، خطر في بالها المرأة المتسولة على الرصيف مجددًا، كيف يتأتى لها احتمالُ كل تلك الثياب المتسخة والجلباب الذي يغطيها، علاوةً على ذلك سياط الشمس وموقد الرصيف المشتعل تحت مؤخرتها؟

حدثت نفسها أن التسولَ في الحر أو حتى البرد عملٌ شاقٌ جدًا، لهذا يبدو دخله مرتفعًا كثيرًا. وسطع في

مخيلتها منظر الأوراق النقدية المتكدسة في الصرة القذرة.

لماذا تفكر طوال اليوم في أمر المتسولة والمال المتراكم في صرتها؟!

تمنت لو أنها تحصل على مبلغ كهذا، تشتري كل احتياجاتها وتسدد ديونها المتراكمة، وتمتع نفسها قليلًا في الإجازة القادمة.

المبلغ الذي تحصل عليه كمصاريف دراسية لا يكفي احتياجاتها من ثياب وأحذية ومستلزمات دراسية، وهذا يجعلها غارقة في الديون طوال العام.

ولولا أنها تتلطف لأخواتها وأمها زيادة المبلغ الخاص بها لما استطاعت العيش بهذه الصورة التي تطمح لها كمخرجة تلفزيونية في المستقبل، منذ صغرها تحصل على أشياء كثيرة بفضل قدرتها على الاستعطاف وإثارة الشفقة أحيانًا،

وتبسمت لنفسها وهي تفكر أنها متسولة أيضًا لكن بصورة أكثر رقيًا، تستخدم الحيلة غالبًا لتنال أقصى ما يمكن من المال من أفراد عائلتها كلٍّ على حدة، ومع ذلك لا يمكن أن تُقارِنَ ما تحصل عليه بتلك الأموال المكدسة في الصرة القذرة.

لثلاثة أيام عقب رؤية المتسولة وفكرة عجيبة تزداد وضوحًا في رأسها، كلما صرفتها استجدت عليها

متطلبات حياتية طارئة وملحة تعيد الفكرة إلى واجهة خيالها.

وأخيرًا جاهرت بها نفسها وهي تهمس لنفسها: لما لا؟!

إنه أشبه بعمل فني ميداني، ستمارس الإخراج والتمثيل بنفسها، وكل ما تحتاجه هو ثياب سابغة وقذرة جدًا؛ ثياب كثيرة تخفي تفاصيل جسدها وحركتها فتزيدها بطنًا وانحناءً.

سترتديها في أي مكان بعيدًا عن الأنظار، وتزحف بكتلتها الجديدة على الرصيف، وتجلس فقط لساعات تملأ صرة ستكون قذرة أيضًا، ولا بأس في ذلك.

اختمرت الفكرة في رأسها وهي تقنع نفسها أنها مضطرة لذلك لمرة واحدة فقط من باب تجربة عملها في مجال التمثيل، ثم إنها ليست دجالة، إنها محتاجة فعلًا.

راقبت الرصيف لأيام كثيرة، وحددت المكان الذي ستجلس فيه قريبًا من الجسر وبعيدًا عن تلك العجوز الجاثمة في الطرف الآخر قرب المترو.

ابتاعت نقابًا وجلبابًا وثيابًا مسربلة مستعملة وطرحة سوداء كبيرة، انتقت أسوأ ما وجدت من ثياب وأقدمها، مرّغتها كثيرًا على درجات السلم حيث تسكن، ونفضتها وجعدتها مستمتعةً، وكأنها تقوم بإخراج أول عمل فني لها.

أخفت مستلزمات المهمة عن عيون زميلتي السكن، وحرصت أن تكون الحقيبة التي تحوي الملابس لينة، ستربطها بعد إفراغها إلى خاصرتها لتعطيها حجما مضاعفًا.

يوم التنفيذ خرجت مبكرة جدًا كي تتمكن من إيجاد ركنٍ معزولٍ تحت الجسر؛ لتختفيَ عن الأنظار وهي تقوم بتنكرها، انتظرت برهة قبل أن ترتدي الثياب وحين أطمأنّت ارتدت كل ما وضعته في الحقيبة، وغيرت الحذاء بحذاء آخر يشبه ما ترتديه العجوز المتسولة.. حشرت فيه قدميها المكسوّتين بطبقات من الجوارب الممزقة.

تحركت بصعوبة وتلقائية كأنها تعبر المكان فقط، كانت تتجه إلى حيث استقر اختيارها؛ في أول الجسر سيكون العابرين كُثرًا، شعرت فجأة بالتردد والقلق، لقد كانت الفكرة أقرب إلى خطة مسلية ومحكمة، لكنها الآن تشعر بالرهبة والتردد، ماذا لو لم تحسن الأمر وانفضحت فعلتها؟! هل يمكن أن يتعرف عليها أحد المارة؟!

خارت قواها من هواجسها، فجلست منكفئة لشدة القلق والخوف، فبدت لنفسها كمتسولة حقيقية.

استغرقت وقتًا طويلا قبل أن تجرؤ على إخراج يدها ومدها من خلف الطرحة السوداء الواسعة، رغم

ارتدائها قفازًا متسخًا إلا أن رهبة إبداء حركة كهذه شلت جسدها كاملا. حتى عينيها خلف شباك النقاب السميك لم تجرؤ على رفعهما لرؤية الأقدام العابرة والسيقان المختلطة التي تمر بها على عجل.

في البداية كانت تسمع رنين العملة المعدنية وهي تسقط بين فترة وأخرى في حجرها، وتعجز عن إدخالها الصرة التي حرصت أن تتدلى على صدرها خلف الطرحة والنقاب السميك، لكنها ما لبث أن تجرأت وجمعت الجنيهات القليلة خشية أن يلتقطها أحد الصبية العابثين، والذين رأتهم يخطفون الجنيهات من حجر العجوز ذات مرة.

استمر جلوسها ساعات الصباح الأولى وقد أنساها القلق والرهبة الشعور بالتعب.

عند الظهر أسندت ظهرها إلى القضبان الحديدية خلف ظهرها، وتمنت تحريك قدميها.. كيف خطر في بالها أنها قادرة على تحمل الجلوس هكذا طوال يوم كامل؟!

مرت الساعات بطيئة والتعب يأكل جسدها الذي عجزت عن تغيير وضعيته خشية أن يظهر منه شيء يكشفها.

أحد المارة رمى في حجرها كيسًا فيه بقية طعامه، شعرت بالتقزز والإهانة، ما لبثت أن ضحكت من

نفسها لهذا الشعور، إنها الآن متسولة، لكنها لن تأكل بقايا طعام أحد حتى لو ماتت جوعًا.

في نهاية اليوم كانت جائعة لدرجة يمكنها أن تأكل أي شيء حتى بقية الطعام الذي في حجرها، لم تأكل شيئًا منذ البارحة، ولشدة قلقها نسيت أن تتناول إفطارًا أو تحمل معها شيئًا تأكله.

مر الوقت بطيئًا وقاتلا.. في الساعات الأخيرة، عدَّت سيقان المارة حتى لا تفكر بعدِّ المبلغ الذي في صرتها، كان ينبغي أن تتحرك لأخذ فترة راحة من جلستها تلك.

لذا قامت مثقلة تعرج مثل أي عجوز مسنة، وتدحرجت في مشيتها إلى أسفل الجسر لتفرد قامتها هناك بكثير من التعب وهي تتلهف لعد المبلغ.

أخرجته بحرص وبدأت بعد الأوراق النقدية ذات الفئة الصغيرة وكم كانت خيبتها كبيرة عندما لم تصل إلى ثلاثمئة مع العملة المعدنية.

حدثت نفسها أن الفترة المسائية ربما تكون أفضل دخلًا من الصباح؛ لذا أخفت المبلغ في الصرة وعادت تجرجر نفسها لذات المكان.

وكم كانت فرحتها والأوراق النقدية ترتمي في حجرها عوضًا عن العملات النقدية.

على هذا الجسر يترافق العشاق، ولعل إبداء الكرم أمام الفتيات يكون هو السبب.

لم تطل الجلوس مساء فقد تاقت إلى حمام دافئ وعشاء لذيذ بعد كل هذا الجوع.

تحركت ببط وهي تتحسس الصرة بفرح تتخيل حجم المبلغ وتبتسم لنفسها.

ما إن توارت عن الأنظار حتى أمسكت الصرة بلهفة وهي تتذكر صرة المتسولة قرب المترو؛ ليعيدها إلى الواقع صوت غليظ لرجل يصرخ فيها بعنف:

- هاتي الفلوس يا ست، من غير علو صوت قبل ما أسحبك من شعرك.

التفتت مذعورة نحو ظل الرجل الضخم الذي حجب ضوء المصابيح خلفه في حين وقفت العجوز المتسولة ذاتها على مقربة منهما، لا تدري من أين أو كيف هبطا عليها هكذا دون مقدمات ولم تشعر باقترابهما.

كرر الضخم طلبه وهو يقترب أكثر مادًا ذراعه الضخم مثله؛ كانت ترتجف وقد أخرست المفاجأة لسانها وحركتها، شعرت أنه لن يتوانى عن استخدام يده في ضربها أو نزع المال منها عنوة، لكنها عاجزة عن فتح فمها بكلمة واحدة.

قالت العجوز صارخة في وجهها:

- كل المنطقة هذه لي، أترزق منها، وأنت تعديت على مكان ليس لك ولا حتى جئتني وطلبت الأذن! هاتي الفلوس لأنها ليست من حقك.

لم يكن يتحرك فيها سوى تفكيرها، مترددة بين خشيتها من أن ترفض وتلجأ إلى الهرب فينزع الرجل ثيابها وتنكرها فينفضح أمرها، وبين أن تسلم لهما المبلغ الذي أبقاها قعيدة طوال اليوم على الرصيف في ذلك الوضع الرهيب.

"من أين ظهر لي هذان اللعينان؟!" لقد كانا يراقبانها منذ بداية جلوسها منتظرين طوال اليوم مثلها حصاد التسول..

قطع ترددها ذراع الرجل التي امتدت إلى صدرها جاذبة الصرة بقوة، ولشدة الجذبة انكفأت على وجهها أرضا قبل أن ترفع رأسها تحدق في سيقانهما وهما ينصرفان بعيدًا وقد تبللت عيناها بدموع الخوف والقهر .

الهروب إلى الزنزانة

أكتب لك وأنا في طريقي إلى الموت، لا أدري تحديدًا أي موت سأستسلم له، فأنا مشوشة كثيرًا وخائفة أكثر، لكنّ كلّ المشاعر التي يمكنك أن تتخيلينها لن تصل مبلغ ندمي لِمَا فعلته بنفسي وبأهلي.

إني أستحق الآن أن أُساقَ إلى الموت، أو حتى أسلمَ نفسي إليه طواعية بين هذه الجدران الأربعة وحيدةً منبوذةً كما اخترتُ لنفسي أو قُدِّرَ لي.

لا أدري هل أعود بك إلى بدايات حياتي أم بدايات مأساتي، أما النهاية فقد صارت تلوح لي خلال الساعات القادمة فقط.

أنا أحدثك لأنك مثلي، أنثى قد يصل بها الطموح إلى أضيق الأماكن إذا أساءت الاختيار.

لقد كنت فتاة مدللة لأبوين حنونين، أعيش بين إخوتي ملكةً، فأنا الفتاة البكر الذكية الجميلة والمجتهدة، ترعرعت إنسانةً مميزةً في عيني أبي بالذات، أما أخواتي الثلاث فكن مجرد نسخ للصورة الأصل التي هي أنا، حتى أخي الصغير الذكر الوحيد بيننا تفوقت محبتي في قلب أبي على محبته.

أبي شخص مختلف عن كل رجال العائلة كما كانت أمي تقول، هاجر بنا كي يمنحنا فرصة لحياة كريمة، نتمتع فيها بالحرية دون ضغوط العادات والتقاليد والأسرة والبيئة، تلك الوحوش الخرافية التي سكنت عقلي الباطن وظلت تطارد أحلامي حتى أجهزتُ على تلك الأحلام بنفسي.

نعم قتلتُ أحلامي الكبيرة خوفًا من وحوشي الخرافية التي تسكن عقلي وذاكرتي التي احتفظت بقصص أوشكت أن تندثر في بلدي لتعشش في رأسي.

أبي رجل مثقف يقرأ كثيرًا، وكاتب له مقالات مهمة يراسل بها مختلف المواقع والمجلات، كان ينوي تأليف كتابٍ أيضًا، لقد كبرت على ما يقرأه أبي على مسامعي حول حرية الإنسان وكرامته، كبرت على أحاديثه حول متاعبه في وطنه وهجرته بقناعة؛ كي يخلق لنا حياةً جديرة، أحاديثه عن أمنياته وحلمه أن أتعلم وأصبح شيئًا فارقًا.

لكنَّ أبي مات، مات قبل أن يبلغ بنا برَّ الأمان الذي ظل يسعى إليه كل عمره، مات فانقلبت حياتُنا بعده إلى موت وإن لم ننعم بسكون الموتى.

فبعد دفن أبي سارت الأحداث بصورة سريعة مخيفة، لم تأذنْ لأمي أن تفكر أو تقرر مصيرنا في بلاد الغربة كما سماها أهلنا في الوطن بل قرروا هم نيابة عنا.

لم يسألني أحد هل هذه غربة بالنسبة لي أم هي وطن.

خلال أسبوع فقط من موت أبي لم نستيقظْ فيه من سكرة الموت والعويل وصل مبعوث الأسرة إلينا، كان قرارًا قد اتخذه جدي وأخوالي وحتى أعمامي، ووصل خالي الأكبر لينفذه لا ليناقش فيه.

لم يتركوا لنا فرصة للتفكير في شيء، حتى الحزن على أبي حرموني منه.

كان ينبغي حينها أن أقلق على مصيري، لم أفكر كثيرًا بالمصير الجماعي الذي يشملنا أنا وإخوتي، كنت أفكر بنفسي كيف أنجو من مصير الجميع بالعودة إلى تلك الوحوش التي تنتظرني على أرض الوطن والتي حاول أبي النجاة منها.

الوطن، يا لها من كلمة تافهة يثيرون بها عواطف ساذجة للبشر!

إن وطني حيث أستطيع العيش بحرية لتحقيق أحلامي، حيث كبرت وترعرعت؛ ولهذا هاجر أبي تاركا خلفه الوطن.

ولم أفكر كثيرًا، كان الوقت دائمًا مشكلتي فقد تم تحديد موعد العودة ووصلت تذاكر السفر، ها هي تتمدد أمامي فوق طاولة أبي التي كتب عليها كل مساء مقالاته عن الحرية وتغيير المجتمعات البدائية المتخلفة التي تقتل أحلام أبنائها.

لقد قررتُ البقاء الذي رفضت أمي مجرد مناقشته مع خالي لمعرفتها أن العودة أمر مفروغ منه، سأبقى، فهذا وطني فعلًا، ولدي صديقات كثيرات هنا، لن أكون وحدي، وحين أكمل دراستي وأصبح شخصية كبيرة كما كان أبي يقول سأقرر أن تعود أمي وأشقائي هنا، حيث قبر أبي وحيث عشنا أجمل أيام حياتنا وحيث ولد أخوي الصغيرين.

تدبرت الأمر مع صديقتي المقربة، سأختفي لدى عمة لها تسكن خارج المدينة، ولا تعرف تفاصيل قصتي، لكنَّها رحبت ببقائي لديها بضعة أيام، سنركب القطار إلى هناك؛ فهي تعيش في ضواحي المدينة في فيلا

تتوسط أرض زراعية كما وصفت لي "ريما" صديقتي.

لعلك عرفت أني حينها لم أكن أعي تمامًا ماذا يعني قراري الكارثي هذا، ماذا يعني هروب فتاة في الرابعة عشرة لا تملك شيئًا في الحياة، عليها أن تختفي عن أنظار كل من يعرفها.

أخبرتني صديقتي في زياراتها إلى عمتها حيث أختبئ أنّ خالي لم يسافر مع والدتي وإخوتي، لقد ظلّ هنا من أجل البحث عني وقتلي كما سمعته يهدد في غضبته المخيفة حين زار بيتهم للسؤال عني.

أخبرتني أن أمي دخلت الطائرة مرغمة وهي محمولة على الأيدي لإصابتها بالإغماء حين اكتشفت اختفائي قبل دخول صالة الانتظار .

ولليالي طويلة ظللت أستيقظ من نومي صارخة لأمي أن تسامحني على تركي لها تذهب إلى تلك الوحوش وحيدة.

كنت أناجيها دائمًا أن تغفر لي وتسامحني، لكنني الآن أستيقظُ من نومي مفزوعة أناديها أن تساعدني وأن تنقذني.

بعد شهر من البحث المضني والصامت خشية الفضيحة رحل خالي إلى الوطن مبررًا غيابي للأهل والأقارب أني مت بعد مرض شديد، ودفنت في المهجر جوار أبي.. هكذا علمت فيما بعد.

لا أعلم كيف تقبلت أمي خسارة ابنتها عقب فقدها لزوجها الحنون، لكنني كنت أقول لنفسي أن كل هذا الكابوس مؤقت، وسنعود كما كنا في وطننا هذا دون غيره.

لم أكن أعلم أن كابوسي بدأ للتو فقط.

فخلال أشهر الإجازة الدراسية تَقَرَّر رحيل أسرة صديقتي الأقرب ريما إلى دولة خليجية للاستقرار هناك، ففقدت السند والرفقة، وخسرت صلتي بالعالم الخارجي.

كان منزل عمتها الأرملة التي لم ترزق بالأولاد في الطريق الزراعي فيلا صغيرة تربض وسط مساحة كبيرة من الفدادين الزراعية التي يرعاها فلاحون بسطاء، ينادونها بالسيدة الكبيرة، كنت أشعر أن هذه الفيلا معزولة عن العالم في كوكب خاص بها.

مع بداية العام الدراسي بدأت أفهم عقم فكرة بقائي، كيف سألتحق بالدراسة؟ وأين أسكن؟ ومن ينفق على

دراستي؟ من سيذهب لتقييد أسمي في كشوفات الطلبة الوافدين؟! لم يعد أبي هنا ليقوم بكل شيء حتى إيصالي إلى باب المدرسة.

وأي مدرسة سأكمل فيها تعليمي وسط هذه الفدادين الشاسعة من الأرض الزراعية أثناء إقامتي عند العمة؟! من أين لي المال كي أعيش؟!

كانت هذه أفكاري وهمومي، لكن العمة كان لها تفكير آخر بعد معرفتها تفاصيل قصتي.

ما إن سافرتْ صديقتي حتى تركت العمة موافقتي على كل ما أقوله، وحاولت بصبر شديد وضعي في المشهد اليائس الذي ألقيت نفسي فيه.

حتى جواز سفري وشهادتي الدراسية بين أمتعة عائلتي، أخبرتني أنه لا يوجد حتى ما يثبت أني على قيد الحياة.

أخبرتني أننا نبعد عن أقرب مدرسة مسافة هائلة، وأنه من الصعب الذهاب إليها، وسألتني: كيف ستعيشين وأين تسكنين؟ ومن يهتم لك؟ ومن أين تنفقين إذا تركتِ مكان إقامتك عندي؟!

أين كانت هذه الأسئلة غائبة عني حين قررت الهروب من عائلتي؟!

وبلطف كبير طلبت مني العمة أن أؤجل فكرة الالتحاق بالدراسة لهذا العام فقط، حتى نفكر في حلول، وتتدبر لي مكانًا مناسبًا في المدينة، خاصة أن عائلة أخيها لم تعد موجودة هناك.

كان الاتفاق عامًا واحدًا يفصلني عن إكمال تعليمي وتحقيق حلم أبي أن أصبح شيئًا فارقًا في الحياة، وأكمل هدفه في محاربة التخلف.

لكنها أصبحت الآن أربعة أعوام، وأصبحت فتاة على مشارف العشرين بعقل وقلب سيدة في السبعين تقتات على الكتب الرثة في مكتبة زوج العمة الراحل لتعرف كل ما في الحياة إلا معنى لحياتها.

تحولت شفقة العمة إلى تملك وهوس بي، لعلها رأت في الابنة التي لم ترزق بها، لكنني لم أرَ فيها الأم التي هربتُ منها.. تتدخل حتى في وقت نومي وتبقيني قربها حتى تغمض عينيها أقرأ لها بصوتي الذي تحبه كما تقول، تطلب مني أن أدللها كأم، وتخاف عليَّ من كل شيء كأم.

ولم أكن أحتمل طلباتها الحميمية، حين تطالبني بقبلة النوم أو عناق الصباح، كنت أشعر بالامتعاض من ضخامة جسدها الذي تصرُّ أن أدلكه لها كل يوم

بالزيوت، أفكر وأصابعي تغوص في اللحم الأبيض أن هذه ليست نهايتي.

حتى قبر أبي لم تسمح لي بزيارته، لم يكن مسموحًا لي أن أتخطى عتبة الفيلا، أظل أدور بين أسوارها كهرة حبيسة.

تطالبني أن أمْتنَ لها، فقد أنقذتني من الضياع، لكنها لا تفهم أي ضياع تسببه لي.

لعلك ستقولين لماذا لم أفكر بالهرب مرة أخرى وأكون شجاعة كالمرة الأولى؟!

لقد فكرت كثيرًا في تجاوز أسوار الفيلا مثل أي قطة قادرة على القفز وعبور محبسها، لكن حكايات العمة عما خلف الأسوار أثارت رعبي، ما ينتظر فتاة وحيدة بلا هوية أو أهل شيء مخيف، فتاة كقطعة الحلوى كما تقول العمة!

لهذا كنت أتراجع كل مرة عن تفكيري بالهرب، هروبي الأول منحني أربعة جدران وسيدة مهووسة ببقائي قربها، لا أدري هروب آخر إلى أين يقودني!

حتى لو فكرت بالاتصال بأهلي في الوطن لا أظن أني سأنجو من القتل، فالعمة تؤكد هذا كل مرة، تؤكد ما أعرفه من قصص محزنة عن قوانين العادات والتقاليد

التي هرب منها أبي، وكيف تهدر دماء الفتيات الهاربات مثلي.

لم تيأس أمي أبدًا من عودتي، بل ظلت تسأل كل صديقاتي عني، لم يكن هناك سوى ريما تعرف مكاني، وريما نفت معرفتها كما أوصيتها، أظن أمي فقدت الأمل حين علمت أن صديقتي المقربة رحلت من هنا، كما فقدتُ الأمل أنا أن تجد لي صديقتي هذه حلًا مع عمتها.

نعم كنت أفكر أن هذه ليست نهايتي، وليست نهاية أحلامي وأحلام أبي لي.

حتى أخبرتني العمة بما تعد لي من مصير.

حرصها المخيف أن أبقى قربها قادها للتفكير في تزويجي بأحد عمال أرضها، هكذا ببساطة! وكأن نهايتي هنا فعلًا، وليس كابوسًا استمر لأكثر من أربع سنوات أنتظر أن ينتهي في أي لحظة.

عندما رفضتُ بشكل قاطع تحول حنانُها إلى توحشٍ صادم، صرخت في وجهي كثيرًا بكلام كثير؛ أنها لمَّتني وأنقذتني من الشارع، ولولاها لكان لحمُ جسدي تنهشه غربان البشر، وأنها آوتني في بيتها، وربتني

دون أن تطالبني إلا بالحب والبقاء قربها، فكيف أرفض ما تصنعه لي ومن أجل مصلحتي؟!

أعترف لك أن ما صنعَتْهُ من أجلي قد أنقذ حياتي، لكنه قتل روحي فكيف تريدني أن أحبها؟

لم تأويني بل حبستني كهرة، والآن تريد قطع آخر أمل لي في النجاة.

تهددني أني في حكم الميتة، حتى لو وصلت إلى قنصلية بلدي فسيسلمونني إلى خالي وأعمامي كي يدفنونني، هكذا ظلت تخيف فيّ روح الطفلة التي لم تغادرني أو يغادر عقلي وحوش تخيلاتي.

لكن الأمر أصبح موتًا أو حياة، زواجي من عامل بسيط في أرضها يعني الدفن حية، وهذا ما لن أستسلم له، وحان وقت الهروب فعلًا.

ولأنها أدركت نيتي هذه صرت حبيسة حجرتي الملاصقة لحجرتها، محرم علي مغادرتها حتى أقبل الزواج.

لم يكن أمامي سوى هذا القلم والورق أخط عليه مأساة حياتي التي لا أدري كيف قدتها إلى أضيق سبيل.

لا أدري فعلا هل سأنجو وأستطيع الهرب؟ أم أموت بيدي؟ أم تدفنني حية بهذا الزواج؟

لحظة شغف

توقفت الحافلة أخيرًا بعد حشرجات مفزعة، بدت وهي تركن ثقلها على جانب الطريق مثل سيدة مهيبة أثقلتها الشحوم والزوائد اللحمية، فتمددت للراحة بعد رحلة طويلة، لم تكن هذه الزوائد اللحمية سوانا نحن ومتاعنا الفائض عن حاجتها كشاحنة جاءت من مصنعها بكامل قوتها.

تناثر المسافرون الساخطون يلعنون كل شيء ابتداءً من الوقت المهدور، وإهمال السائق، واختيارهم لشركة النقل الفاشلة، وحتى طرقات البلد المحفرة، والوضع المتردي في كل شيء داخل البلد.

البعض استغل العطل لاستنشاق الهواء في هذا المكان المقطوع في صحراء جرداء إلا من شجيرات عنيدة تنتظر المطر وتخشى الأرانب البرية.

تناقلت الأيدي قوارير الماء التي حملها البعض في حرص ووهبوها للباقين في سخاء فرضته اللحظة.

فضل الكثيرون السيرَ جيئةً وذهابًا قريبًا من الحافلة، فلا شيء مُغْرٍ للاكتشاف، ولا أشجار يمكن أن يستظلّ تحتها المسافرون.

رغم الضيق الذي أطبق عليّ إلا أنني وجدت هذا التوقف منحة قدرية؛ كي أفكر أكثر فيما ينتظرني من محطات سفر، وفكرت أنه من الجيد أن لا أحد يعلم أني أسافر برًّا مفردي، وأن التصاقي بهذه العائلة في الحافلة مؤقت حتى وصولي إلى داخل حدود وجهتي المؤقتة أيضًا.

وأنا أجول بنظراتي أبحث عن مكان للاستراحة شعرت فجأة بذلك الضيق المبهم الذي ينتاب المرء حين يقع تحت طائلة نظرات الفضول الملحة.

"هل هو قلقي من الآتي ما يجعلني أشعر أني تحت المراقبة !"

لجأت إلى الجلوس على صخرة بعيدة قليلًا عن الضوضاء الصادرة من الجمع الناقم، المنظر الذي افترش فيه الناس الرمال كي يريحوا سيقانهم زاد في ضيقي وإحباطي.

تنتظرني صعاب كثيرة ربما هذه أخفها، هكذا أحدث نفسي لأخفف عنها الإرهاق فهدفي ما زال بعيدًا، تكفيني همومي حاليًا كي أهتم بنظرات الآخرين التي أشعرها تلتهم خطواتي ووجهي وتخترق أفكاري.

كانت الصخرة المستديرة كبيرة تكفي لشخصين، فلم استغرب حين جلس عليها شخص آخر قربي لم ألحظ قدومه لانشغالي بما في رأسي.

لكن رائحة عطره اقتحمت أنفاسي بهدوء يشبه قدومه، فكرت أنه من الجميل أن يحتفظ المرء برائحته العطرة في هذا الجو الخانق.

ألقى التحية بصوت مستشرف ملح، وجلس يوليني ظهره فلم أتمكن من التقاط ملامحه، شكل الصخرة فرض علينا هذا الجلوس الغريب أن يولي كلٌّ منا ظهره للآخر وينظر في اتجاه مختلف.

لوهله شعرت بالضيق والتوتر لاقتحامه المكان، لكنَّ الأمر بدا طبيعيًا لوضعنا غير الطبيعي، ولأني امرأة غير مطلوب مني آداب المجاملة مع الرجال الغرباء، فقد تجاهلت وجوده تماما، وعدت لاستغراقي بما يدور في رأسي من هموم ومخاوف حتى أتاني صوته مجددًا ليذكرني بوجوده:

- يبدو أن إصلاحها سيستغرق وقتًا أكثر من المتوقع!

أقنعت نفسي أنه لا يتعمد فتح أبواب للحديث فقلت مجاملة:

- هذه الحوادث تعيق الكثيرين عن أمور مهمة، ينبغي أن تُحَاسَبَ شركةُ النقل على إهمال تفقد حافلاتها.

رد بصوت ساهم ومحبط:

- هل تعتقدين أنه الإهمال؟ أنا أظنها الأقدار تصنع هذه الفوارق الزمنية كي يحدث ما نتمنى في الوقت الذي لا نريد، أو النقيض.

فقلت باقتضاب لأنهي الحديث:

- مع ذلك الأقدار تحتاج إلى أسباب، والإهمال سبب كافٍ.

فرد بغموض:

- نعم لعله كذلك فعلا، قد لا تكون مصيبتنا في الحياة تأخرَ ما نشتهي في المجيء، وإنما حدوث تلك التي لا نريد مبكرًا .

فقلت بصوت بارد وأنا أشعر بالامتعاض من طلاسمه:

- لا بأس، الأمور الجميلة تأتي دائمًا متأخرة، وتكون لأكثرنا صبرًا.

فرد بتنهيدة عميقة أثارت عجبي:

- أبدا يا عزيزتي، الأمور الجميلة لا تأتي متأخرة، نحن فقط نعرف قيمتها متأخرين.. يحدث أن نصل متأخرين عن كل ما نتمنى، لكن ما يهم هو أن نصل بكامل رغبتنا في الوصول التي انطلقنا بها، وألا نفقدها في الطريق.. الشغف هو ما يصنع الأمور.

وأنا من ذلك النوع الذي يحافظ على شغفه مهما كانت الظروف.

وصمَتَ، "فكرت أن نغمة الخيبة في صوته لا تقول ذلك، لكنني عدت لأفكاري قاطعة أي طريق لتبادل الحديث، حتى إني لم أنتبه متى نهض من مكانه ولا من كان من ركاب الحافلة المزدحمة، فلم ألمح حتى جانب وجهه، حين نهضت بدوري بعد أن تم إصلاح العطل.

لكنني لا أدري لماذا تذكرت عبارته تلك وأنا أتطلع في عيني هذا الرجل أمامي الآن، هل بسبب رائحة عطره التي انعشت ذاكرتي ؟!

أم بسبب نظراته التي تحمل ذلك الشغف الذي أفتقده، أم لأنها موجهة لي أنا!!

رجل ينظر لي بشغف وكأني أهم ما تمنى رؤيته!

أتذكر العبارة بعد كل هذه السنوات الطويلة من عمري في الغربة، وأشعر فعلًا أنني تأخرت كثيرًا عن موعد فات وقته لتشعله محض نظرات وابتسامة لرجل لا أعرفه، رجل استضافته القناة في برنامج أُعِدُّه أنا خلف الشاشة ليتحدث هو عن نفسه.

ولقد شعرت أني أرغب في الحديث عن نفسي لأول مرة!

كان طريقي شاقًا لكني وصلت، مرت حقائبي تحملني بعناد عبر مطارات الدول فلا مجال للتراجع والعودة، لا مكان أعود إليه، فالعودة أصعب من الذهاب.

حتى العائلة التي كانت تساند ضعفي تحتاج صمودي الآن كي أصل من أجلها، كي أعبر كل الحدود بتلك الفرص المتاحة رغم قسوتها، وأتشبث بالعمل الذي كان أمنية، ولقد وصلت أخيرًا..

نعم وصلت فاقدة لمذاق الوصول أو معنى النجاح أو متعة الشغف..

لسنوات طويلة في الغربة أمارس عملي دون حماسة فلم يربطني به سوى الراتب حين أتسلمه بلهفة وأرسله على الفور لعائلتي كي أرتاح من قلقي على من ينتظره، وأتخلص من وجوده أيضًا.

حتى حلمي القديم أن أكون ضمن طاقم قناة تلفزيونية أصبح من أجل من أعولهم فقط، فسياسة القناة ليست كما هي قناعاتي؛ لذا صرت أعمل مدفوعة بالحاجة فقط.

رفاهية إبداء الرأي في برنامج أعده في بلد يتمتع أهله بالحرية لا تحق لي؛ لأننا جميعنا هنا حُمِّلنا قيودَ بلدنا، وحُمِّلتُ علاوةً على ذلك وضعي ويأسي.

حتى إنني لا أغبط فتيات بلدي اللاتي أشاهدهن هنا في الغربة وهن يستمتعن بمزايا التغيير والسفر، لم أفكر أن أخوض في مرح الحياة وصخبها مثل الكثيرات.

فضلت أن أقيد نشاطي وأسلوب حياتي ضمن الذين يحملون هم الوطن وهموم من يعولونهم فيه.

حتى لحظات السعادة والراحة التي تحدث للمرء نتيجة لنمط العيش في هذا البلد الجميل وسمة حياته الميسرة والمرفهة كنت أشعر فيها أني أخون المتعبين هناك، الذين لا يعرفون سوى الشقاء وضنك العيش، فلا أشعر لها وجودًا.

ولم أكن وحدي التي تسعي لصنع شيئًا مشرفًا وجميلًا لأهلها ووطنها، كنا كثيرات مَن أدرْن ظهورهن للضياع التي تحدثه الغربة أحيانًا دون رقابة أحد سوى الضمير.

لكنني وحدي التي كنت أشعر أن لا طعم لنجاحي هذا.

هذا النمط الذي أطلقت عليه زميلتي في العمل توصيف "السمو الساذج" في حياة يتهافت فيها الآخرون لاقتناص الفرص واللهو.

لم تكن مشكلتي خسارة فرص الحياة المريحة أو اللهو فهي ليست هدفي، كانت مشكلتي أني لا أشعر بمتعة ما أصنع من نجاحات تعبتُ كثيرًا حتى أصنعها.

فاقدة للشغف والمتعة، وظلال الكأبة ترسم ملامحي رغما عني.

كنت في قرارة نفسي أعجب من هذا الشعور، وأسأل نفسي مرارا : أليس هذا ما سعيتِ إليه وتمنيتِه وحاربتِ كل تلك الظروف القاهرة لتصلي؟

أنظري إلى نفسك أنت امرأة ناجحة، وما وصلت إليه أمنية للكثيرات، ويمكنك بقليل من الجهد أن تري كل هذا الجمال حولك.

لماذا أنا غير سعيدة بما أفعل؟ ماذا ينقصني كي يمتلئ فراغ الشغف الشاغر في صدري؟ هذه الصورة المثالية التي أعيشها فرضت لي في القلوب حبًا واحترامًا لماذا لا أسعد بذلك؟ العمر الذي يجري بلا طعم سينتهي ولم أشعر بمروره.

أشعر أن داخلي بطارية ممتلئة بالطاقة لكنها ساكنة أو نائمة، ما كنت أحتاجه بالفعل هو حدث كالشرارة يشعل هذه الطاقة داخلي، حدث حقيقي، وليس نظرات شخص عابر أشعلت كل المصابيح المنطفئة داخلي.

لقد تأخرت كثيرًا على هذا الشعور، ومرت سنوات العمر رتيبة جدا.

لا أظن أن مجرد نظرات مهتمة وشغوفة قد تحدث في حياتي فرقًا.

بادلته النظر بابتسامة فاترة لم تكسر شغف نظراته، وهو يتطلع نحوي بابتسامة واثقة قائلًا: أنت لا تتذكرينني أبدًا.. أليس كذلك؟

تأملته مجددًا، ملامحه الوسيمة من النوع الذي لا يُنسى، فكيف سأنساه لو قابلته سابقا؟! هززت رأسي معتذرة:

- الحقيقة لست أتذكر، فمعذرة منك رغم أن مثلك لا ينسى.

واستدركت محرجة: أقصد شخصية مميزة في مجالها، ولهذا أنت هنا ضيف في قناتنا.

كان شخصية مميزة فعلا فقد أنشاء بماله الخاص مستشفى لأمراض السرطان وبذل أمواله كلها من أجل أن يستقبل المشفى جميع الحالات مجانا. لكن المميز في عمله هذا أنه فعله وفاءً لزوجته الراحلة التي توفت بذات المرض في عمر مبكر.

فكرت أن وفاءه هذا يكفي ليكون مميزا بخلاف عمله الإنساني الذي أنقذ وأسعد الكثير من الأرواح.

قطع اتصال تفكيري بابتسامته التي تتسع لتحتوي المكان كله وهو يقول :

- أما أنا فأعرفك، فتاة الحافلة التي قابلتها صدفة وأنا في طريقي لعقد قراني من ابنة عمي، وشعرت حينها أني وصلت متأخرًا كثيرًا عما تمنيته دائمًا..

لعلك لا تذكرين حوارنا على الصخرة وأنت توليني ظهرك، فلم تكلفي نفسك عناء الالتفات، لقد فشلت محاولتي لجرك لحديث فما بالك بالنظر إليّ. وابتسم مجددا وهو يقول :

_ لقد حاصرتك بنظراتي منذ بدء الرحلة، ولم تقعْ عليَّ نظراتك أبدًا، وأسرتِني بشرودك وردودك المقتضبة الباردة، وأنا أحاول التقرب منك، لقد صددتني بحزم كأنك تقولين لي: "لقد أتيت باكرًا على موعدك" وكنت أظنني تأخرت بما أني ذاهب للزواج بحسب اتفاق أبي وعمي، لكنه لم يكن موعدنا بعد..

وها أنا الآن وصلت إليك بكامل الشغف كما قلت لك ذات يوم.

البحث عن رجل

فيما الرجل أمامها يشكو حالته بصوت منخفض ينم عن ضيق وإحباط تذكرت عشرات غيره، كانوا يجلسون أمامها يصفون وضعهم الصحي بتردد وخجل شديدين.

رغم أنه جاء ليبحث عن حل طبي إلا أن مشكلته لم تهز ثقته بنفسه أو تجعله يشعر بالخجل من الشكوى بها. كانت مشكلة لكنها تجعله أمام نفسه متفوقا.

لقد كان رجلًا مكتملَ الذكورة والرجولة أكثر مما ينبغي، وكم يثيرها الرجل كامل الرجولة في أقواله ومظهره الخارجي قبل أفعال الذكورة، حدثت نفسها وهي تتأمل تقاسيم وجهه القوية والوسيمة بمظهره الريفي وتحرك القلم بين إصبعيها قبل أن تدون بالإنجليزية كلمات مبهمة.

"الرجولة فعلا مجموعة صفات وأخلاق، لكنها تكون طاغية في مظهر وهيئة جميلة؛ جمال الشكل والمضمون كما يقال"

استقر نظرها على فتحتي أنفه المنحوت كأنوف التماثيل الإغريقية وهما تدفعان زفرة الضيق فتتسعان

قليلًا لتبدو رجولته فائضةً فعلًا لمجرد قيامه بهذه الحركة المؤثرة.

لا تدري لماذا يجذبها كثيرًا هذا الشكل من الأنوف حين تختلج باندفاع الأنفاس، يذهب خيالها دوما إلى تلك اللحظات الحميمية بين رجل وامرأة حين ينبض طرفي الأنف باندفاع النفس من فرط الرغبة والشعور.

الأنفاس التي تصخب اشتهاءً ليست كغيرها كأنما لها رائحة مثيرة للحواس..

أعادها صوتُه الرخيم مجددًا من خيالاتها المكبوتة، وهو يقول رافعًا حاجبيه بدهشة أو تساؤل، لم تَعُدْ تدري، فلا تعرف هل فضحتها ملامحها وهي تفكر به بتلك الهيئة : - هل هناك علاج لا يفسد الأمر تمامًا؟

ردت باقتضاب اعتادت تصنعه أمام مرضاها:

- نعم لكل مشكلة حل، ولكل حالة محاولة علاج.. هل يضايق زوجتك هذا الأمر؟ أجاب بحزن:

- نعم، يضايقها ويرهقها أيضًا، ويكاد أن يدمر زواجنا.

- لماذا لا تفكر بزوجة ثانية؟!

لقد أفلت منها هذا السؤال بلا شك، فهي كطبيبة ليس من شؤونها تشجيع تعدد الزوجات لمن يعاني طاقة

جنسية مفرطة، شعرت بالامتعاض من نفسها، لكنَّ ملامحَه التي لم تتبدلْ أقْنَعَتها أنه لم يفسر سؤالها كعرضٍ بَدَرَ من أنثى تُهيجها الرغبة، بل سؤال من طبيبة تهتم لتفاصيل الحالة أمامها.

فكرت: لعله يظن أن الطبيبات ليس لديهن رغبات تصيبهن بالمرض أحيانًا، خاصةً طبيبة تفيض شبقًا واشتهاءً لممارسة الجنس بدلًا من معالجة من يعانون ضعفًا جنسيًا.

لكن هذا الرجل الفاتن أتى طلبًا لعلاج يخفف من شهوته التي ستدمر زواجه، يا لمفارقات الحياة وإهدار الطاقة!

قال بضيق وهو يكرر حركة تهدج أنفه التي تسبب لها اضطراب النبض:

- أنا أحب زوجتي، ولا أفكر بغيرها.. أريد أن تكون مرتاحة؛ لهذا أحاول العلاج والعودة إلى الحدود الطبيعية التي تتحملها هي.

"يبدو أنه مخلوق فاتن ونادر وغبي كبقية الرجال فعلًا فكرت: لماذا لا تحصل على زوج كهذا ؟!

للأسف تقل في الغربة فرص الزواج وهي بعيدة عن أهلها ومعارفها وأبناء منطقتها من الذكور، لو لم تكن في الغربة لربما حصلت على عروض زواج مناسبة.

لكن خصوصية بلدها في التفكير حول المرأة تجعل فرص الزواج تقل أكثر لفتاة سافرت بمفردها للدراسة بحجة أنها منفتحة ولم تعد صالحة لتكون زوجة وربة بيت.

هكذا يقول الرجال لكنهم في الحقيقة يكرهون الفتاة الناجحة التي تفوقهم في كل شيء، وهكذا ترد الفتيات أمثالها لمواساة أنفسهن..

لكن هذا لا يلغي حقيقة أن المرأة بحاجة إلى رجل، فهي لا تؤمن أن المرأة تكتفي بنفسها، الرجل مهم في حياة المرأة، إن لم يكن من أجل إعالتها فمن أجل الجنس وملحقاته.

هي تتمنى شابًا ثلاثينيًا في أوج عنفوانه وفحولته، وليس طبيبَ الباطنية الأرمل الذي ألمح لها برغبته في الاقتران بها، إنه يحمل على عاتقه أكثر من خمسين عامًا وكرشًا مستديرًا شرهاً يستهلك نصف الأدوية التي يحصل عليها كعينات دعائية من شركات الأدوية.

تزداد الرغبة في الطعام عند الرجل حين يتجاوز الخمسين على حساب الرغبة في الحب والجنس، يصبح الأكل الشهي والتقدير هما التعبير الأهم في نظره عن حب الشريك.

والتفكير الذي يستحوذ عليه هو تعدد الأطباق في كل وجبة، وروائح الطبخ هي عطور المنزل المفضلة لديه، هذا هو الإغراء الذي لا يقاومه والذي يكتسح قلبه عن طريق معدته.

طبيب الباطنية المترهل لم يقع في حبها على أي حال، بل وقع في حب طبق الطعام الذي شاركت به في غداء جمع أطباء المستشفى وطبيباتها لتذوق الأكلات من مختلف البلدان التي ينتمون إليها.

رفضها له لا يعني أنها شرهة للجنس، بل لأنها محرومة منه تمامًا، وهي تدق أبواب الأربعين بسرعة، تعلم أنَّ المرأة الشبقة الشرهة للجنس تذهب قبل غيرها إلى الشيخوخة.

فيما تظل المرأة المحرومة متقدة الذكاء والنشاط، تتمتع بطاقة خفية تنفذ سحرًا وجاذبية مهما تقدم بها العمر، ومع كل هذا فإن النقص في ممارسة الجنس يسبب ضغوطًا ومشاكلًا صحية لا تحصى.

تذكرت ما قالت زميلتها التي تصغرها عمرًا وهي تتأمل قامتها المشدودة بحسد:

- ما أجمل أن تصل الأنثى سن الشيخوخة دون بطن مترهل وثديين متدليين كالِقرب، هذا ما تجنيه الأنثى من الجنس والإنجاب.

فكرت يومها أنه حتى وهي امرأة لم تتمكن من معرفة هل كان كلام زميلتها نابعًا عن حسد لما تتمتع به هي من جسد متناسق منحوت أم لصرف العين والحسد عن حياة الزميلة التي يظللها وجود رجل وأطفال يملؤون البيت شغفًا.

رمقت الشاب الوسيم قبالتها بنظرة ساهمة وهي تفكر أن دهاء المرأة أحيانًا يكمن في معرفة تأثيرها وليس استغلاله، لكن يبدو فعلًا أن لا تأثير لهذا السحر الخفي على هذا الشاب؛ لذا كتبت له بعض الأدوية التي تأمل أن تفتح عقله إلى الميزة التي يتمتع بها، فيستغلها بالزواج من امرأة تُجَارِيه بدلًا من زوجته التي لا شك تعاني برودًا.

كانت تود سؤاله حول كيفية ممارسته للجنس مع زوجته لكنها شعرت أن هذا الأمر لا علاقة له بحالته هو مطلقًا.

إحدى النساء اللاتي حِئْنَ هنا لطلب العلاج من حالة برود وكراهية جعلتها تقتنع أن ممارسات الرجل الشاذة قد تكون سببًا في كراهية الزوجة للجنس وللرجل أيضًا.

شكت لها أن زوجها كان يمارس معها الجنس وهو يدخن سيجارة، حين يدعوها إلى الفراش يشعل

سيجارة ثم يضمها إلى صدره وهو يهمس من بين الدخان:

- اشتعلي أنت أيضًا.

لكن رغبتها انطفأت مع الأيام حين لسعتها السيجارة التي في يده.

لقد كانت تفقد تركيزها فيما تفعله وهي تراقب حركة يده حين ينسى نفسه، ثم فقدت رغبتها في معاشرته تمامًا، وأبغضت الممارسة كلها وابغضته، وبدأ يهددها بالزواج لكنها خشيت على عائلتها من التفكك فقررت العلاج بعد أن عجزت عن التظاهر بالرغبة.

هكذا يزدحم عقلها بعشرات من مشاكل الحياة الجنسية والتجارب والخبرات والحلول الطبية والنفسية، تنغمس فيها بكامل رغبتها هروبًا من عودتها كل مساء منهكة وحيدة لا تجد حلًا لمشكلتها.

ماذا عليها أن تفعل كي تحصل على زوج؛ على شريك حياة؛ رجل يدللها حبًا، ويعتني بها ويحميها ويشبع حاجتها لتكون محط رعاية واهتمام؟

ترغب في ملء فراغ هذا الجانب الملح، فكل جوانب حياتها كما تريد، هي ليست من عشاق البيت أو المطبخ رغم أنها تحسن الطبخ غالبًا، وهي لا تفكر

بالأطفال في الوقت الحالي، ما تفكر به هو العاطفة أو بمعنى آخر وجود رجل، الشيء المعادل لوجود أنثى.

حلم مقابلة فارس الأحلام الذي يلائمها في غربتها تحول إلى سباق فارسة منفردة مع سنوات عمرها التي تُهدَر في الانتظار، لم تتخطَ سوى حاجز البيئة، وربما كان هذا أحد أسباب وحدتها في النهاية.

ربما لكل هذا قبلت بفكرة صديقتها التي تعشق ترتيب الزيجات للآخرين، رغم أنها لم تكن تتخيل أبدًا هذه الطريقة للحصول على زوج.

رتبت صديقتها مقابلة مع رجل يبحث عن زوجة هو الآخر قد وضع شروطًا في مقابل شروطها بغية الارتباط، كان يبدو مناسبًا كثيرًا رغم أن الأمر بدا أقرب إلى توقيع عقد شراكة، وليست تلك الفكرة الحالمة التي عششت في رأسها قبل عشرين عامًا.

لكنه الحل الأخير كي لا تمضي بقية العمر وحيدة.

قاربت الأربعين وصارت اهتماماتها أكبر من سنوات عمرها، لقد تجاوزت فراغ العقل الذي يغري الرجال بامتلاك رأس أنثى.

يميل الرجال لصغيرات السن هذه نزعة الفلاح الذي يعشق الأرض الخصبة ليقلب كيانها ثم يزرعها بما يريد من أفكار وقناعات.

المرأة بعد الأربعين غابة كثيفة الأغصان من الأفكار المسبقة والمتشابكة؛ لذا يتجنب الرجال غابات النساء وإن حاموا كثيرًا حولها وتمنوا اختراق رهبتها وجمالها.

لكن فكرة لقاء رجل يحمل الصفات التي تتمنى تستحق أن تنصاع لها.

لقد وضعت شروطًا ظاهرية محددة، كلها تزين مفهوم الرجولة التي تثيرها، ويمكن أن يراها جميع الناس فيه، وعليها فقط أن تكتشف داخله الرجولة الحقة أثناء اللقاء أو اللقاءات بحسب ما يتوافقا.

كان شرطها الأول أن يكون وسيمًا، ليس لأن شرطه الأول أن تكون جميلة، بل لأن جمال الوجه بوابة يدخل منها الجنسان في علاقة قبول، وهو شرط طبيعي لحالة استثنائية كهذا الزواج المرتب له.

إنه ليس زميلها في العمل الذي تعيش معه في ذات المكان منذ أعوام لتحب صفاته ورجولة أخلاقه وتنسى ملامحه الباهتة.

العشرة تجعلنا نرى جمال الأخلاق والطباع، فتغطي على أي نقص في الشكل، فنحب الآخر لأنه يبدو لنا جميلًا، أما الشخص الذي لا نعرف كيف هي أخلاقه

وطباعه فنحن بحاجة لعرض جيد لوجوده، وهذا العرض هو جمال الإطلالة كشيء مبدئي.

إنه مشروع يجب أن يعرض بصورة جميلة، أو سلعة نريدها ملفتة وجذابة، ولعله فكر بنفس الطريقة حيالها، فوضع شرط الجميلة رغم أن اشتراط الجمال هو أهم ما يرغبه الرجال في النساء دائمًا.

اشترطت بجوار أن يكون وسيمًا أن يهتم بصحته ومظهره، يتمتع باللياقة والنشاط، ويولي اهتمامًا لأسلوب حياته في أكله وشربه، فالرجال يهملون أجسادهم بعد الأربعين أكثر من إهمال النساء.

هذا لا يعني أنها تريده نجمًا سينمائيًا أو رياضيًا، لكنها لا تريده شبيهًا بطبيب الباطنية المترهل، إنها باختصار تريده رجلًا، رجلًا مكتمل الرجولة.

ولقد فتنها ما إن وقعت عيناها عليه، جبينه الواسع مدرج متكامل لهبوط القلوب، قامته المتوسطة المشدودة وجسده الممتلئ باكتمال. أناقته اللافتة حد الدهشة.

"إنه يهتم، هذا واضح" حدثت نفسها، يهتم كثيرًا لمظهره وجسده، ويقاوم غزو السنوات بمزيد من الاهتمام.

فقط تمنت لو لم يلوّنْ شعره بصبغة تفسد لونه الفضي، لكنها ستقنعه بترك صبغة الشعر ما إن يتزوجا.

كان أيضًا يبدو مفتونًا بها وسعيدًا بهذا الحظ الجيد، طبيبة وجميلة وتبدو أصغر سنًا كثيرًا من عمرها الذي اطّلع عليه.

كان يتأمل وجهها بانبهار وإعجاب، وشعرت هي بالحرج، فلم تكن جميلة لهذه الدرجة، تملك مسحة جمال أقل كثيرًا من جاذبيتها كأنثى.

أدهشها أن صوته يختلف عن هيئته، كان رفيعًا، لا تدري لماذا تخيلته رخيما! ربما تمنت أن يشبه صوته ملامحه ما إن شاهدته واقفا ينتظرها في ذلك المقهى الهادئ حيث تواعدا.

حدثت نفسها "سأعتاد على صوته بل سيصبح نغمتي الأجمل، أعلم أن الحب والاعتياد يصنعان الكثير، وسأحبه لا محالة، فهو يبدو حلمي المنتظر بهذه الابتسامة الفاتنة".

كانت تدقق في ملامحه أولًا مثله تمامًا، أنفُه ذلك الأنفُ المفضل، عيناه لامعتان بمكر، بدا لها جذابًا.. كل شيء فيه أعجبها.

كان يسرد عليها قصة زواجه، وكيف هجرته زوجته بعد زواجهما بأشهر قليلة، وكيف أن ذلك آلمه كثيرًا،

وجعله يزيح من تفكيره مسألة الزواج مرة أخرى تماما، لكنه شعر مؤخرًا بحاجته إلى رفقة، وهو هنا معها أخيرًا، تحدث كثيرًا بأدق التفاصيل، وسألها عن حياتها فبادلته الحديث بذكاء متعطش لمعرفته أكثر.

توالت لقاءاتهما، وفي كل مرة تسترجع أحاديثهما تشعر أن هناك شيئًا غريبًا.

لقد كانت اهتماماته وملاحظاته تثير دهشتها، إنه رجل خبير في شؤون المرأة إذا جاز أن تطلق عليه هذه التسمية.

حين قال لها مرة إنها تبدو أصغر سنًا وأكثر نضارة مما توقع ظنته يغازلها.

لكنه استدرك قائلًا:

- هل سبق واستخدمت الفيلر أو البوتكس لتبدين بهذه النضارة؟! ماذا تفعلين من أشياء لا نعرفها؟ أنت طبيبة وتعرفين حيل الأطباء أكثر منا.

لقد صدمتها لهجته التي تسرب إليها الحسد من كونها أكثر نضارة منه، هكذا وشت نبرة صوته الرفيع.

رغم أنها طبيبة إلا أنها لن تفكر باللجوء لحلول الطب التجارية لتحافظ على شباب سينتهي عاجلًا أو آجلًا،

لكن شعورًا بالحيرة غزاها نحو هذا الرجل لم تجد له حلا.

رغم الألفة التي تكونت في علاقتهما إلا أن هناك شيئا مفقوداً فيه لم تدركه!

هل يضايقها كونه يعرف الكثير عن خصوصيات النساء وأحاديثهن التي تترفع هي عن خوضها أم لأنه يتحدث كامرأة؟!

نعم هذا هو الشيء الغريب، الشيء المفقود فيه!

جوهر الرجولة هو ما تفتقده في هذا الرجل، يبدو كل شيء فيه مكتمل إلا اهتماماته كرجل، تبدو لها اهتماماته نسوية أكثر منها، طوال الوقت كان يقوم بدور الأنثى في علاقتهما، هكذا شعرت ولم تفهم ما الخلل!

هالها ما وصلت إليه في تفكيرها بل ما فسر لها كل مشاعرها المبهمة عقب كل لقاء لهما.

أصابها الدوار حين وصلت إلى هذا الجزء من تفكيرها، تشعر بالقرف الشديد والحسرة الكبيرة.

رجل كهذا بالغ الوسامة والمهابة شكلًا خسارة كبيرة بانضمامه ميولًا وتفكيرًا للنساء. "يجب فصل التخصصات" هكذا كانت تفكر وهي تسير في أروقة

المستشفى خارجة للبحث عن نسمة هواء تطفئ اشتعال رأسها.

"ينبغي للرجال أن يكونوا رجالًا وللنساء أن يكنّ نساءً، اختلاط التخصصات جريمة في حق الآخرين" لقد كانت تواقة لرجل فقط، رجلٍ جسدًا وميولًا وتفكيرًا، وحتى خشونة، رجل حقيقي يحنو عليها ويشبع أنوثتها ولا ينافسها فيها.

"لماذا يبدو حظي سيئًا هكذا؟!" لا تدري هل تضحك أم تبكي!

لقد كان كرجل شهيًا جدًا، لكنه كأنثى مقزز جدًا، وهي لن تقبل شيئًا كهذا، ستتركه وهذا يحزنها كثيرًا.

لقد كانت أسوأ أفكارها فكرة البحث عن رجل، ولم يعد أمامها سوى القيام بما تفعله كل الإناث دائما.. انتظار رجل.

المجنونة

لقد ماتت أخيرًا!

بعد ثلاثين عامًا من انتظار موتها، لم تعش خلالها سوى ذكرى بضعة أشهر فقط. انتظر أقرب الناس لها هذا الموت ولو استطاعوا تقديم موعده لفعلوا.

توقف الزمن بالنسبة لها عند تلك الأشهر القليلة في سفرها للدراسة، كل ما جاء بعد عمر التاسعة عشرة لا يخصها.

من عرفها طالبة متفوقة ومتميزة ما كان ليصدق أن يقضي عليها هذا الأمر التافه.

لقد كانت تملك عقلًا أقرب إلى العبقرية والنبوغ، هكذا كانت تُصَنَّفُ من خلال شهاداتها ومهاراتها.

تهيأت لها المنحُ الدراسية وفرصُ كثيرة لتخرج من بلدها الفقير، وبيئتها المتزمتة نحو الفتيات في توقع كبير لمستقبلها المشرق.

وطارت إلى روسيا أواخر السبعينيات، حين كانت المنح الدراسية هناك تَكْفُلُ للطالبة حياةً لا تحلم بها في بلدها.

ما إن وطأت قدماها بلاد الثلج حتى اشتعلت حماسة لكل شيء يحدث أمامها؛ نمط الحياة الجديد المليء بالمفاجئات، والوجوه الجديدة كل يوم، السكن الجامعي في برج الطالبات الذي لا يشبه العشش الساحلية في بلدها الحار جدًا، الثياب التي قدمت لكل الطالبات والتي تختلف تمامًا عما كانت ترتديه في بلدها، حتى المبالغ المالية التي لم تعرف ماذا تفعل بها، وكل شيء متوفر هناك، أبهرتها الرحلات المختلطة والمرح والتزحلق على الثلج عوضًا عن التزلج الذي أضحكها وأبكاها لكثرة ما وقعت وعجزت عن الوقوف.

زميلات السكن اللاتي قدمن من دول مختلفة بعاداتهن المختلفة وطبائعهن المتباينة كانت معرفتهن ممتعة وصادمة أحيانًا، حتى اللغة التي شعرت أنها تحدٍّ اشتعلت حماستها لتجتازه بكل شغف.

بدا لها وكأنما العالم كله في مكان واحد بكل تناقضاته الآسرة والمخيفة والممتعة.

كنت ألاحظ أن شغفها بالحياة لا يقل عن شغفها بالدراسة، لعل سر ذكائها هو هذه المقدرة على موازنة ما تحب، عاشت لحظاتها بقناعةِ أنَّ كلَّ شيء كأجمل ما تتمنى حتى اكتسح حياتها شغفٌ آخر ألغى كل ما سبق.

تعارفا في اجتماع للطلبة، عمله كمسؤول في لجنة شؤون الطلبة أتاح له التعرف على الجميع والاهتمام بمشاكلهم أو الإعاقات التي تواجههم.

وككل قصص الحب في الغربة والبعد يصبح الآخر هو الوطن كله، هو الأمان والألفة لتهون على الشخص غربته إن رافقه وطن يسكن قلبه.

اهتم بها كفتاة متميزة في فهمها ووعيها وحلاوة روحها التي أضفت عليها جمالًا أخّاذًا.

لم تكن فتاة فاتنة، لكن سمرتها جذابة، ولها ضحكة تضيء لها غمزات عميقة في خديها، لطالما كانت قامتها القصيرة النحيلة ملفتة ومدعاة للدعابة، لكنها أيضًا تُرغمُ الجميع على الاهتمام بها كطفلة خاصة حين تنزلق على الثلج وتمتد الأيدي لإنقاذها.

ولأنه يفوقها عمرًا؛ كانت تعود إليه في كل شأن حتى أصبح هو شأنها الخاص.

تكاثرت نزهاتهما معًا كندف الثلج التي تخلف الصقيع، وأصبحت عاداتهما في شرب الشاي الساخن طقسًا يوميًا ينتظرانه بكل لهفة، لم تَعُدْ تقبل سوى ذراعه هو لتنتشلها من زحلقتها المعتادة على الجليد.

لقد تعلقت به بذات الإخلاص الذي تفعله في كل شيء وبذات الشعف.

كنت أندهش كثيرًا من حالة الانبهار التي تبديها نحوه.

وهو الرجل المتواضع في كل شيء، حتى إنه لم يقتحم حياة الطالبة المرموقة بالصورة التي تجعلنا نتخيل حجم كل ذلك الدمار. لكنه الحب ذلك الحدث الذي لا يُفسر.

أعود بعدما حدث لأتأمل في حديثه أو حتى أفعاله ولا أجد تفسيرًا سوى أن عمى الحب كان قويًا.

لا أنكر أن له طلةً جميلة، ويُعدُ وسيمًا، إلا أنه تافه التصرفات، ولا يوجد رابطًا بين التفاهة والبراءة التي تصفه بها، هكذا كنت أراه وما أزال.

حتى ذلك الاهتمام الذي أغدق به عليها كان يمنح مثله للكثيرات غيرها بحكم عمله أو جنسه كرجل.

وككل قصص الحب الكبيرة أتت النهاية كما لم يخطط لها، على الأقل بالنسبة للعاشقة الصغيرة التي انهار عالمها.

أما العاشق الموجوع فقد كان يدرك النهاية رغم انجرافه لتفاصيل قصة الحب اللذيذة، وقد حل اليوم الذي ينبغي فيه ترك عمله في الغربة، والعودة إلى قريته البعيدة جدا حتى عن منطقتها، فقد كان له زوجة وطفلان، وعمله مؤقت هنا وإن طال لسنوات.

وغادر بعد وداع موجع لكل من عرفهما، ولولا ازدحام سكن الطلبة بالقصص الشبيهة بقصتهما أو حتى القصص الفاجعة المختلفة كرمي إحدى زميلاتنا لنفسها من نافذة الدور الخامس لكان فراقهما الحدث الأبرز.

ذلك أن سامية لم تعد سامية التي كانت..

كأنما انتزع عقلها برحيله، ذلك العقل والذكاء التي ميزها، أصبحت شخصًا مهزوزًا زائغَ النظرات والأفعال، اهملت دراستها إلى أبعد حد وصارت تلجأ للعزلة بنفسها تحادثها بصوت مسموع.

تتحدث إليّ أحيانًا كأنها لا تعي أمرَ رحيله فتسألني: "ألم يعد؟"، فأقول لها مشفقة: "ولن يعود يا عزيزتي".

كنت أدرك أننا حين نشتاقهم حد اختلاق وجودهم لا يعني أنهم سيعودون.. الذاهبون أحيانًا ينسون طريق عودتهم لكثرة الدروب التي سلكوها في ترحالهم كي يبتعدوا..

لكنها غالب الوقت تعاني صدمة رحيله ولا تصدق أنه حقًا تركها هكذا ببساطة، تبحث عنه في كل مكان كأنها ستجده.

الحق أنه من الحمق أن تمنح الآخر نشوة السعادة أنك تحبه فيما هو يمنحك انكسار الرفض وإحباط البعد عنك.

ما أقبح أن يأتي حظك السيئ في الحياة على هيئة أشخاص سطحيين يقتلون روحك بتفاهتهم! لقد خذلها بنظرته التافهة لعمق محبتها له.

لم تستطعْ سامية مجابهة صدمة رحيله المتوقع، لأيام طويلة ظلت ذاهلة تبحث عنه في أروقة المبنى حيث كان يعمل، تنتظره في ذات المكان حيث موعد الشاي.

تزور الأماكن التي يمكن أن يظهر فيها فجأة، وتسأل عنه رفاقه إذا صادفتهم: "هل عاد كامل؟".

في إحدى الصباحات استيقظتُ لأجدها تحمل بين كتفيها رأسًا خالٍ من الشعر تمامًا؛ صلعة حقيقية تلمع تحت أضواء الحجرة التي ما زالت مشتعلة، لقد حلقت رأسها بشيء لم يبقِ على شيء.

حرصها على تنظيف المكان خلفها يوحي بأنها قامت بما ينبغي، وبقيَتْ هادئة تتسمر نظراتها في الفراغ.

لم يعدْ يخدعني هدوؤها، فهي تتقلب بين الهدوء والجمود، وبين البكاء والنحيب بسرعة مخيفة؛ تبدأ في الهمهمة والحديث مع نفسها ثم تنفجر باكية بصورة مؤلمة.

لم تصبح حالتها مدعاة لقلق الزميلات إلا حين حاولت الانتحار، ورغم أنه سبق وشاهدت جثة إحدى الطالبات حين القت بنفسها من البناية، إلا أن مشهد سامية وهي ممددة على سرير المستشفى كالجثة أثار رعبي وحزني أكثر.

تغير كل شيء في سامية، نظرتها المتقدة ذكاء انطفأت.. أحيانًا تشتعل بنظرة جنونية مخيفة تحدق في الشيء لا تحيد نظرها عنه، فيزداد منظرها إخافة لي وهي قابعة في ركن الحجرة.

أخيرًا تَقَرَّر إعادتُها إلى الوطن من قبل إدارة الجامعة، فقد أصبحت مصابة بالجنون فعلا، قالت الطبيبة إن محاولة الانتحار لن تكون الأخيرة، وإنها ستسعى لإنهاء حياتها بأي طريقة.

وهي تصعد سلم الطائرة دون وعي بعد إعطائها تلك الأدوية التي تبقيها هادئة وجامدة سألتني بهدوء : "هل سافر كامل؟".

لقد مر في خاطري ذلك التساؤل المستفز الذي يردده الرجال حول لماذا لا تجن النساء إذا عشقن؟!

أعتقد أن المجنونات عشقًا أكثر من الرجال بكثير، لكنهن يخترن إطفاء حياتهن بالموت ولو على قيد

الحياة أو يطفئ ذووهن حياتهن كي لا يصبحن فضائح حب مثل الرجال المجانين.

بقيت سامية حبيسة المصحة العقلية ما يقرب من ثلاثين عامًا، هادئة إلا من نوبات بكاء حادة، وبضع محاولات انتحار فاشلة، تحدق في اللاشيء وتسأل هل عاد كامل؟!

أتساءل الآن هل أحبها كامل؟ لقد كانت قصة حب تافهة في نظري!

ولعل أجمل قصصنا وأكثرها كارثية ما كنا نعدها تافهة.

عدالة النقاء

لم يكن سهلًا أن نعيش تحت سقف واحدٍ.

لكنَّ والدي ووالدها صديقان مقربان؛ لذا اعتقدا قطعيًا أننا أيضًا سنكون صديقتين مقربتين.

ولم نستطع أن نكون حتى زميلتي سكنٍ متلائمتين، فهي من ذلك النوع الذي يبذل جهدًا كبيرًا في كل وقت؛ ليشعرك أنك شخصٌ تافه عديم القيمة، طوال الوقت تحاول إقناعك بكلامها وتصرفاتها أنها أفضل منك، وأن لا شيء يمكن أن تقوم به أفضل مما تقوم به هي.

ومع ذلك فإن أكثر ما يثير غيظي هو قدرتها على التظاهر بالطيبة والتسامح، وكل ذلك الهراء الذي تدَّعِيه كلما بَذَلْتُ جهدي في فضحها أمام الآخرين.

ولم أكن حريصة على بقائنا معًا في سكن واحد، فقد قلتُ لها ذات مرة حين اشتكت من صوت المسجل الذي يصدح بالغناء ويلهيها عن مذاكرتها:

- لماذا لا تطلبين من والدك تغيير مكان إقامتك مع أي طالبة أخرى لا تتسبب في إزعاجك بالأغاني في وقت راحتها؟!

فاغتصبتْ ابتسامة لئيمة وهي تقول: "لا داعي لذلك، فأنا لا أريد أن أخيبَ أمل والدينا في أن نبقى معًا حتى إنهاء دراستنا".

دائمًا تشعرني أنها هنا لمراقبتي أو تقوم بالوصاية علي، وأنّ أبي هو مَن طلب منها ذلك؛ بمعنى أنها الأفضل والأعقل في نظر أبي، تتدخل في شؤوني في فضول بليد، لا أفهم كيف تتحمل نفوري منها ومن تقربها، ولستُ غبية لأسمح لها بتجاوز الحدود بيننا، حتى لو كنا نسكن تحت سقف واحد.

كل محاولاتها لفضح خصوصياتي تبوء بالفشل، فأنا لا أنخدع بتزلفها المزيف أبدًا.

اهتمامها بالقيام بشؤون البيت والطبخ وتفتيش حجرتي بحجة ترتيبها كان سببًا لصراخي في وجهها مراتٍ عديدة دون أن يشعرها ذلك بالإهانة.

لكنّ ما جعل الأمر يتجاوز احتمالي أن الشابّ الذي أحببته فضّلها علي، رغم علاقتي به التي امتدت لشهور طويلة؛ لتؤثر به وتخطف تفكيره واهتمامه بمصادفات قليلة التقى بها معي في الجامعة، وبدلًا من أن تنتهي علاقتنا بخطبته لي، طلب مني أن أجمع بينهما لتكون صديقة له، هكذا ببساطة أفسدت هي حياتي وعلاقاتي.

لن أنسى إهانتها لي حين حدثتها بألم عن إعجابه بها ورغبته في التعرف عليها، لم تتركْ لي فرصة كي أهينها لسطوها على قلب الرجل الذي أحب، بل ردّتْ باستنكار وغرور:

- لم آتِ هنا لإقامة علاقات مع الشبان يا مها، لقد تغربت عن بلدي من أجل إنهاء دراستي فقط، لماذا لا تفعلين هذا أنت أيضًا إكراما لأبيك إن لم يكن لنفسك بدلًا من علاقاتك وصخبك هذا وبدلا من أن يعلم والدك بما تفعلين فينكسر قلبه؟!

بسبب الردِّ المشمئز والمستفز استحقت انتقامي منها، هذا الغرور والنذالة في التهديد بالوشاية سببان كافيان كي أكسر أنفها وأمرغ وجهها في الطين.

لم يسبقْ لي أن أشركتها في صداقاتي أو علاقاتي أو حياتي الخاصة أو أي شأن لي.

لو أشركتها في مغامراتي أو حياتي الخاصة فسأجد كل ذلك عند أبي مرصودًا بتلك الدقة التي تستذكر بها دروسها وهي تدون كل شاردة وواردة في المحاضرات.

إنها تملك روح مخبر، فهي لا تكفُّ عن البحث هنا أو هناك عن معلومة حول شيء قيل أمامها ولا تلم بأمره

كاملًا، أي كائن يستطيع أن يعيش هذه الحياة الجافة التي تعيشها بين الكتب والأبحاث؟! لست أفهم!

لم يسبقْ لها أن ذهبت إلى أي مهرجان غنائي أو نادٍ ليلي أو تسكعت في أزقة هذا البلد الذي لا يشبه بلدنا في نظرته للفتاة.

هنا لا أحد يتدخل في ما تلبسينه أو مع من تسيرين، أو لماذا تتأخرين في عودتك إلى منزلك، وباستثناء تدخل شريكة السكن المزعجة فإنني أعيش كما يحلو لي.

سئمت نصائحها ووصايتها عليَّ، سئمتُ إفسادها علاقتي بأبي ونقل أخباري والمبالغة فيها، فأنا حقًا أعيش حياتي بخلافها، لكني أبدًا لن أفرط في نفسي.

القليل من المرح والعبث لن يؤثر، لم يخلقْنَا الله للدراسة فقط، ثم إن أمسيات السهر مع الرفاق لا تعدو عن كونها مغامرة للهو والمرح فقط.

لذا حين طلب مني ماهر صاحب الشقة التي تلتقي فيها شلة الأصدقاء أن آتي برفيقة جديدة خام كما يسميها من أجل التسلية لم يخطر في بالي غير سماح.

ولم يكن إرسالها إلى هناك أمرًا صعبًا، فهي تعشق دور الخدومة المتفانية من أجلي، رغم أنها أخبرتني عن وجود امتحان يخصها غدًا، ويجب أن تعود سريعًا للاستذكار، فقد وافقت أن تذهب إلى عنوان الشقة

لجلب العلبة التي يتوقف عليها مصيري في الحياة، والذي منعني عن الذهاب لجلبها هذا الدوارُ والمرضُ الذي أصابني منذ ليل البارحة.

***

لم أستطِعْ أن أخفيَ دهشتي من تلك الليونة في تعامل مها معي، ولا طلبها مني بتلك الرقة والاستعطاف الذهاب إلى منزل إحدى صديقاتها لجلب علبة لا أدري ما هي.

ربما يعود ذلك لتوعك صحتها بالأمس، فقد طرقت باب حجرتي ليلًا لأول مرة منذ وقت طويل، وطلبت مني دواءً مهدئًا، وكانت تترنح من شدة الإعياء، فأسندتها بصعوبة وأدخلتها حجرتها التي لم أطأها منذ وقت طويل أيضًا، منذ منعتني مها من الدخول، استرقتُ النظرَ إلى الفوضى على الأرض بطرف عيني، الفوضى حتى على الجدران في صور ورسومات لأشخاص لا أفهم ما الجمال في الأقنعة التي يرتدونها من الميك أب والشعر الملون!

لكني وأنا في طريقي إلى العنوان الذي كتبته لي على ورقة صغيرة، وقد فضلت الذهاب بالميكروباص عوضًا عن طلب سيارة أجرة، كنت أشعر بقلق مبهم

أفسد فرحتي بتقاربنا أخيرًا أنا و"مها"، ربما يكون قلقي حول محتوى العلبة!

أخشى كثيرًا أن تورط نفسها في شيء خطر كالممنوعات مثلًا، هناك من ينزلق إلى شرك المخدرات دون أن يشعر أو يعلم.

لم يستمر وفاقنا منذ وصولنا هنا فترة طويلة، فقد شده عقلَ مها هذا الانفتاحُ في الحريات هنا، صارت تتصرف بشكل لا يليق بعاداتنا وتقاليدنا، حتى إنها تصادق الشبان وتخرج معهم، وتسهر إلى وقت متأخر أغلب لياليها، وهذا أثّرَ كثيرًا على دراستها وأخيرًا صحتها.

لم تكن تحب تدخلي في شؤونها أو نصحها وتذكيرها بما جئنا من أجله، بل إنها جُنَّت ذات مرة وحدثتني عن إعجاب صديقها بي مما جعلني أنهرها بقسوة وأخيفها بمعرفة أبيها بما تفعل.

لقد زاد تصرفي عمق الهوة بيننا للأسف، لم تكن تقبل أن أنظفَ حجرتها بدعوى أني أفسد فوضاها التي تحب، لم تكن تأكل معي إلا مضطرة، لكن بعد تلك الحادثة أصبحت ألمح كراهية وحقدًا في عينيها مما أحزنني كثيرًا.

فلا عجب أني سعيدة بطلبها هذا، وسأذهب إلى أي مكان من أجل إسداء خدمة لها، لعل علاقتنا تتحسن فهي ابنة مدينتي ووالدها كوالدي.

حين طرقت باب الشقة وأطل وجه شاب وهو يبتسم بسعادة عابثة خطر في بالي التراجع، فأنا لا أعرف كيف هي هذه الصديقة التي تسكن هنا، لكنني سألته بثبات لا يظهر تفاقم القلق داخلي:

- هل هذه شقة سعاد؟ أتيت من طرف زميلتها مها.

أجابني بلطف وهو يرفع حاجبيه كأنه يتسلى بسؤالي:

- نعم عزيزتي، هذه شقة سعاد.. تفضلي هي بالداخل.

لكنني أجبت بصرامة وحزم: "يمكنك أن تتفضل بمناداتها؛ كي تجلب العلبة، فليس لدي وقت كافٍ للدخول".

وكم كانت صعقتي حين مد كلتا يديه الثقيلتين وجذبني إلى الداخل بسرعة وقوة لم تسمحا لي بفهم ما يحدث.

قاومت دفعه لي للداخل، وضحكاته تتصاعد بمرح وهو ينادي على أشخاص آخرين، وأنا مذهولة لا أصدق أن يحدث هذا من أشخاص ضد شخص لم يسيء لهم، لم أكنْ لأصدق إلا أن هذا مقلب ثقيل من شلة "مها" المجانين مثلها.

لم أصرخ كما كنت أتوقع عن نفسي، بل وقفت أتوسط صالة تلك الشقة التي يعمها الفوضى والقذارة مثل حجرة "مها"، وقفت بثبات وأنا أدفن الخوف في أعماقي وأقول بحزم: "إذا كان هذا مقلب للدعابة فأنا لا أسمح بهكذا تصرفات، وسأبلغ الشرطة عن أي تجاوز".

تعالت ضحكات الشاب خلفي وهو يقول:

- يمكنك ذلك والحصول على فضيحة كبيرة لكن بعد حدوث التجاوزات، فأنت رفيقتنا لهذه الليلة، وستنسين هذا الهراء بعد كأس واحدة وسيجارة صغيرة.

سقط كل تظاهري بالشجاعة وأنا أرى شخصًا آخر يظهر وهو يحمل زجاجة شراب وثلاثة كؤوس بين أصابعه، ونظرة مستمتعة تطل من عينيه مثل رفيقه.

صرخت من أعماقي دون صوت: "لا أصدق أن "مها" تفعل هذا بي.. لا أصدق!"

استدرت نحو باب الشقة أنوي الهرب، فأحاطني الشاب بذراعيه محاولًا شلَّ حركتي وأنا أضرب كل مكان تصل إليه قبضاتي وركلاتي.

قطع هذا المشهد الموجع صوت شاب ثالث وهو يقول:

- هذه سماح زميلة مها في السكن وابنة بلدها.

وتقدم غاضبًا وهو يردد: اللعنة عليك يا مها، ألم تجدي سواها؟!

أبعد صديقه عني أو تملصت منه لم أعد أدري من شدة غضبي ورعبي، سمعته يقول بوضوح:

- لقد انتهت هذه الليلة يا رفاق، لن أسمح أن يضايق أحدكم هذه الفتاة.

وتذكرته، إنه الشاب الذي ألمحت "مها" إلى إعجابه بي، ورغبته في التعرف علي.

إنها فرصته الآن، ولعله هو من خطط لحدوث هذا، ولعله يهدد مها بشيء كي تنصاع له وتحضرني إلى هنا بهذه المكيدة.

مرت الدقائق التالية كالكابوس فقد التحم هذا الشاب مع رفاقه في جدل حاد حول هدر الأمسية المرتقبة بشهامته التافهة كما سموها، لينتهي الأمر بعراك الأيدي، كل هذا وأنا أرتجف في ركن الصالة عاجزة عن المرور نحو باب الشقة من خلال أجسادهم المتوثبة للالتحام.

وصرخت لأول مرة وأنا أرى اللكمات تتطاير في وجوههم فعلًا، كنت أتساءل في رعب هل يمثلون عليَّ كل هذا؟! هل التعرف عليَّ يستحق هذه المسرحية المخيفة؟!

وكما التحموا في عراك فجأة انفضوا بعد برهة، ليرتمي اثنان على الأريكة وهما يلهثان بتعب يبدو حقيقيا، فيما أخذ الشاب صاحب الشهامة التافهة يدي وسحبني خلفه لنخرج من باب الشقة وأنا منقادة له بكل الهلع داخلي.

في المصعد طلب مني ترتيب مظهري، لم انتبه لغطاء رأسي الذي انحسر قليلًا بفعل صراعي مع صديقه.

تكلم كثيرًا في طريقنا إلى شقتي أنا و"مها"، قال: إن منظري وأنا أدافع عن نفسي في قبضة صديقه أخرج من داخله شخصًا آخر.. طلب مني أن أسامحه وأن أمنحه فرصة ليكون شخصًا يناسبني.

لم أجد كلمات كي أرد عليه سوى ظنوني تلك فقلت:

- التعرف عليَّ الذي طلبته من مها لا يستحق هذه التمثيلية المفزعة، ولا إرغام مها على إرسالي لكم، أكل هذا لتظهر كشخص شهم جدير بالإعجاب والتعرف عليك؟! فقط اتركنا أنا ومها وابتعد عني الآن.

أكملت حديثي لأشاهد وجهه وقد امتقع لونه تمامًا، وفقد حيويته التي صارع بها رفاقه الاثنين معًا.

لكنه لم يبتعد بل أوقف سيارة أجرة وهو يمسك بذراعي جيدًا، ودفعني داخلها برفق قبل أن يصعد جوار السائق ويلقنه العنوان.

ما إن ترجلنا من السيارة أمام العمارة حتى كنت أنا من يلحق به، صعد الشقة قبلي وطرق الباب بقوة قبل أن تفتح مها، وقد ظهر على ملامحها القلق والخوف ما إن رأت سحنة وجهه.

قال لها بقسوة اشفقت عليها منها:

- كنت تسأليننى لماذا أحببتها هي لا أنت؟! ببساطة لأنها لن تفعل مثلك مطلقا، لن ترسل صديقتها أو فلنقل زميلتها وابنه بلدها أو حتى أي فتاة غريبة عنها لذلك المصير الذي تعرفين.. سأخطب سماح من والدها إذا قبلت بي، وسأبذل جهدي لأكون أفضل من أجلها، ولن أسمح لك بعد اليوم بالإساءة لها أو البقاء معها في سكن واحد.

امتقع لون وجهها دون أن تنبس شفتاها بكلمة واستدارت تهرول مسرعة إلى حجرتها فيما كرر اعتذاراته لي وانصرف وهو يؤكد لي أن كل شيء سيكون على ما يرام.

في صباح اليوم التالي غادرت مها الشقة بعد طلبها من والدها السماح لها بالانتقال إلى سكن آخر، لا أدري

ماذا أخبرت والدها ولم يخبرني أبي شيئا حول الأمر حين أبلغني عن حضور زميلة سكن جديدة ستعيش معي.

في نهاية العام تمت خطبتي على هذا الشاب عقب تخرجه بتقدير جيد جدًا..

لقد كان جيدًا في كل شيء حتى شهامته التافهة.

أين اللّه؟

لم أهتم بتتبع نهايات صديقات الغربة أو يخطر ذلك على بالي مطلقًا.

كنّا نلتقي كثيرًا لشعورنا أننا نمثل شيئًا متناسقًا يضمه نمطُ حياةٍ واحدة، ولم نكن شيئًا متناسقًا في حقيقة الأمر، بل جمعتنا فكرة أننا كلُّنا في غربة عن أوطاننا، وأننا في ذات الوطن الذي نتسلل بين زواياه كوافدين.

السنوات التي قضيتها معهن انتهت بعودتي إلى الوطن، ومعها رحل اهتمام معرفة أخبارهن وقصصهن، أعرف أن هذا الأمر سيِّئٌ نوعًا ما، لكنه في ظل الواقع مقبولٌ، فالكثيرُ من الناس لا يحبُّ أن تتدخلَ في شؤونه بالسؤال ماذا صنعت في حياتك؟ أو ماذا حدث لك مؤخرًا؟

من يرغبُ في إخبارك عن إنجازاته أو عثراته سيخبرُك من تلقاء نفسه، فزوايا الدردشة والتواصل تحتلُّ المساحة الأكبر في حياتنا، ونصلها بضغطة زر فقط.

لم أكسر حدة هذا الإحجام عن السؤال إلا لمعرفة أخبار "شادية"..

لقد كانت تمثل الدهشة في مجموعتنا الرباعية، ابتداءً من مظهرها الفوضوي، وانتهاءً بآرائها الصاعقة حول الدين والأخلاق.

كان أكثر ما يدهشنا أنها لم تأتِ من أسرة متزمتة أو متشددة حتى تعلن نقمتها على كل شيء، لقد تمتعتْ بمرونة أسرية تُحْسَدُ عليها، كما أنَّها أتت من بيئة يَغْلُبُ على أهلها البساطةُ والنقاءُ، ولم تواجِهْ في حياتها ما يدعو للتشكيك بوجود إله لهذا الكون.

الحقيقة أنها كانت مستفزة لنا جميعًا، ذلك أننا مجموعة على قدرٍ كبير من الثقافة والفهم، ولم يَعُدْ يقنعنا ذلك الكلام بعدم وجود إله.

بل إن "رنا" في إحدى نقاشاتنا قالت لشادية لتسكتها: "حتى لو لم يكن هناك إلهٌ صدقيني نحن بحاجة إلى هذا الإله كي ينصفنا منك يوم الدينونة الكبرى"

وكانت فرصة مثالية لشادية كي تصر على أن البشر اخترعوا هذا الإله من أجل ذات السبب؛ أن يُكافِئَ الضُعَفاءَ ويُعاقِبَ الأشرارَ الأقوياء.

بالنسبة لي لم أكن أخوض كثيرًا معهن في تلك النقاشات؛ لأني لا أهتم كثيرًا هل صديقتي مؤمنة بوجود الإله أم لا، كل ما يهمني هو كيفية معاملتها لي، هل تحسن تصرفاتها معي وتبادلني الاحترام

والاعتراف بوجودي وحقي في الحياة أم لا، أما علاقتها بخالقها فليست من شؤوني مطلقا، لست من عشاق تقديم النصائح لمن يملكون عقلًا يفكر ويبحث ويقرأ ويصل إلى النتائج التي تناسبه.

نعم أنا على قناعة أن الأشخاص يختارون فقط ما يناسبهم بغض النظر هل كان صوابًا بالنسبة لآخرين أم خطأ.

أرى أن الإنكار يبدأ بالشك، وليس بتغييب العقل والتفكير اللذين حتمًا سيقودان بشكهما إلى الإيمان، لم أكنْ مقتنعة أن هناك مَن يُنكر وجود إله، كل ما في الأمر أنه يعاني مشاكل خاصة مع الله، ولم يعجبه كإنسان يفكر بعض الأمور التي تتعارض مع رغباته، لعلي أصدق أن ينكر الإنسان بعض الأمور التي لا تلائم تفكيره، لكن أن ينكر وجود إله فهذا ما لا أصدقه من شخص يفكر.

ولم أكن أتوقع أن تثبت لي شادية صدق هذا التفكير بنفسها، ففي إحدى الأمسيات المقمرة في شرفة الشقة التي أقطنها خلصت الجلسات الرباعية المعتادة بأن نكون معًا، فقد اعتذرت رنا وسناء عن الحضور لأسباب طارئة.

ورغم أنه يصدف حدوث ذلك كثيرًا إلا أن ما حدث لشادية كان مدهشًا كالعادة.

وجدتها تلقي ملاحظاتها المستفزة الساخرة حول ملابس زميلة لها، وتبدي استغرابها لإصرار هذه الزميلة على ارتداء كامل ثيابها السابغة حتى النقاب الثقيل في هذا الحر الخانق.

قلت لها أجاريها لطرد الملل:

- هي تفعل ذلك لالتزامها الديني بهذا الحجاب مقتنعةً بوجوب فرضه، فلا داعي للسخرية أو الاستغراب، لا أظن أنك تحبين أن يسخر أحد من قناعاتك حتى لو لم يؤمن بها.. فردت بهدوء:

- هل تعتقدين أن الله يشق على من خلقهم ويحملهم ما لا طاقة لهم به؟!

فقلت ضاحكة :

- ظننتك تنكرين وجود الله، لكني أرى أنك تنكرين ما جاءت به الأديان فقط، في رأيي أن التشكيك فيما جاءت به الأديان من طقوس وأفكار أقلُ ضررًا من إنكار وجود الخالق واليوم الآخر.

زفرت في ضيق وهي تنهض من كرسيها وتقف أمام حاجز الشرفة تحدق في الأضواء الساكنة للمنازل البعيدة.

بدوري انشغلت بتناول العصير المثلج أمامي، وفي قرارة نفسي سعيدة لانقطاع هذا الحوار العقيم، لست من عشاق الجدال أيضًا خاصةً مع شخص يجادل من أجل العناد فقط.

فجأة سمعت صوت نشيج شادية المكتوم قبل أن ألمح ارتجاف كتفيها وهي تجهش في نوبة بكاء حادة.

قفزت لأحتضنها والدهشة تلجّم مواساتي، كنتُ أعرفُ من خلال اطِّلاعي أن من يمرُّ بهذه المرحلة من التفكير يُعاني اضطراباتٍ نفسية حادة، وإن لم يُظهرْ عليه ذلك كشادية، فهي تبدو لنا فتاةً متناغمة مع نفسها، لا تغادر الابتسامة شفتيها، ممتلئة بالحماس لكل شيء، فلماذا البكاء هكذا إلا من نفسية ترفض نفسها؟!

فكرت وأنا أُهدِّئ من روعها "لعلَّ ذكرى مُؤلِمة اقتحمت رأسها في سكون الليل هذا!"

تغمغم بحديث غير مترابط لم أفهم منه شيء سوى نغمة الندم والخوف.

كان قميصها الرقيق قد التصقَ بظهرها بسبب تعرُّقها من فرط الانفعال واشتداد الحر في الشرفة، بدأتْ تفكُّ

أزراره العُليا بضيق وعجلة، وأنا أتأملها مشفقة، وكعادتي لا أفرض نفسي بسؤال مباشر عن سبب بكائها، أقنعت نفسي أنها إذا رغبت في الفضفضة فستتحدث دون فضول مني؛ لذا اكتفيت بتهدئتها ومواساتها الصادقة على شيء لا أعرفه.

اقترحتُ عليها أن ندخلَ من الشرفة، فالحجرة المكيفة أصبحت أفضل من هواء الليل الساخن، وبادرتُ بالدخول لإحضار قميص جاف من أجل أن ترتديه فلا تصاب بصدمة برد المكيف.

وهي تنزع قميصها على عجلة صدمني ذلك المشهد!

حتى الآن لم أنسَ منظر تلك الندبة على ظهر شادية، لم تكن ندبة عادية لقد كانت عضة أو نهشة عميقة وواضحة لفم متوحش، ما زالت محمرة الأطراف يظهر أثر الأسنان والتجعد المشوه للجلد، أيقنت أن هذه الإصابة لم تَجِدْ عناية طبية، فالتأمت بهذه الطريقة المشوهة.

فطنت شادية إلى أني لمحت ندبتها، فازداد احتقانُ وجهها وسرعة تلفعها بقميصي الذي ناولتها إياه، وساد الوجوم بيننا قبل أن أذهب إلى المطبخ لإعداد كوبَي عصير .

ولأول مرة أجدني أفتح مصراعي ذلك النقاش الذي استثقله، أشعر أن خلف شادية سرًا ما، يجعلها ناقمةً في هذا الجانب بالذات، وهي تتمنى الحديث معي حوله؛ لأنني من ذلك النوع الذي يحب الأخرون أن يلقوا بحمولتهم بين يديه لأنه يلقيه خلف ظهره ولا يهديه لأحد أبدًا.

أسرار الأشخاص بالنسبة لي تُنسى، لأنها فقط لا تعنيني، وأقصى ما أبذله لمن يفضي بها إليّ هو التعاطف والاستماع ثم النسيان، إلا سر شادية الذي أصبح يعنيني فجأة.

قلت لها وكأني أكمل حديثنا:

- هناك نوعية من الناس تتناسى رحمة الله، وتتذكر عقابه فقط، لعلها تشعر أن الخوف هو طريق الاستقامة، فالركون للرحمة يولد التراخي، لكن التوسط بين الأمور جميل في كل شيء.

ردت وهي تتجاهل نظرة التعاطف في عينيّ:

- ليس في كل شيء، هناك أمور عليك أن تكوني فيها في أقصى اليسار أو أقصى اليمين، فالتوسط منطقة ضبابية أقرب للحياد والعزوف عن اتخاذ موقف.

خفت أن نبتعد عن هدفي في جعلها تبوح بما أبكاها أو قصة تلك الندبة التي صرت أرسم لها قصصًا في

خيالي، وأن لها علاقةً بمواقف شادية وتصرفاتها؛ لذا أمنت على كلامها قائلة: "نعم، لكن هذا يسمى تطرفًا".

قالت مبتسمة وقد جمعت شتات نفسها:

- أي طرفي نقيض سيطلقان على بعضهما مصطلح التطرف، حتى من يسعى لنزع حقوقه المشروعة سيُسمَّى متطرفًا في نظر المغتصب، الأمر نسبي ما دام الجميع يقدم مصلحته فسيكون الحق معه من وجهة نظره.

قلت وأنا أستوي في مقعدي متحفزة رغمًا عني:

- الأخلاقُ ليست نسبية، والحق هو الحق، لا تخلطي الأمور يا عزيزتي، العقل والفطرة وحتى الشرع الذي ترفضينه يقف في صفِّ الحق، ولا يجيز الظلم لأنه في مركز القوة، أو لأن أصحابه يرونه صائبًا.

ظهر الإعياء على ملامحها لأول مرة وهي تخوض نقاشاتها المحببة، مما جعلني أشعر أنها تناقش فقط كي تقنعَ نفسها، لا كي تقنع غيرها ردت بتعب:

- مع هذا يحدث أن يرى الآخر قيامك بعمل من حقك جريمة وخطيئة لا تغتفر.

فقلت كي أهون عليها:

- طبعا يحدث هذا كثيرًا، فقد خُلقنا في كبد وهذا الحدث من ضمن مكابدة الإنسان في الحياة، ما يهم أن تكوني أنت على ثقة أن ما فعلتِه هو حق لك كي يكون صوابًا.

ابتسمت بمكر رغم إعيائها قائلة:

- وإذا رأى الآخر أنه ليس صوابًا؟

ضحكت وأنا أندهش من نفسي لتحملي سخافة هذا الحوار:

- أنا لا أؤمن أن الأخلاق نسبية يا عزيزتي، ولا أخلط الأخلاق بتقاليد الناس أو انطباعاتهم نحوها، الأخلاق ثابتة وهي الصواب الذي أتى الشرع ليثبته ويكمله، العقلُ والضميرُ أيضًا يؤيدان هذا، إذ لا يمكن أن يَقْبَلَ الخطأ إلا ضميرٌ ميتٌ مهما تجمل كصواب مقبول.

امتقع لونُها أكثر وهي تنهض من مكانها على عجلة وتقوم بنزع قميصي من على كتفيها؛ لترتدي قميصها دون اهتمام هل تظهر ندبتها لي أم لا، وهي تعاجل قائلة: - نعم الضمير.. إنه الضمير.

سألتها وهي تهم بالانصراف:

- إلى أين؟ ألا تجدين أني مستمتعة فعلًا بالنقاشات التي تحبين، وانخرطت فيها بحماسة أيضا؟!

وضحكتُ محاولة إضفاء المرح على الجو الذي تجهم كثيرا.

ردت شاردة وهي تربت على كتفي:

- ربما كلمة واحدة يا صديقتي، تختصر كل النقاشات التي كنت تتجنبين خوضها معنا.

خرجت شادية من الشقة ومن الغربة كلها، فقد رحلت عقب حوارنا بيومين فقط على أقرب طيران إلى بلدها، تركت خلفها دراستها وحياتها المستقلة والمريحة كما بدا لنا، وعادت لتواجه ذلك الشيء الغامض في حياتها.

ولعل هذا ما جعلني أترك عادتي في إهمال العلاقات حين انتهائها برحيل أصحابها أو رحيلي، وجدتني مهتمة لتتبع مصير شادية في بلدها والسؤال عنها. ليس بسبب رحيلها المفاجئ بعد نقاشنا، بل بسبب تلك الندبة المروعة في ظهرها، بسبب حالتها الغريبة منذ البداية.

بعد سفرها انفرط عقد لقاءاتنا بشكل عجيب، فقد سافرت سناء مدينة أخرى، وانشغلت أنا وكذلك رنا.

بعد شهور طويلة من عودتي إلى بلدي تذكرت شادية، ولأول مرة أفكر بالسؤال عن شخص.

سألت عنها كل صديقة مشتركة، وكم كانت صدمتني حين أخبرتني صديقة من ذات بلدها أن شادية في السجن تنفذ حكما قضائيًا صدر ضدها بعد اعترافها بالقتل غير العمد!

اكتفيت بهذه الإجابة ولم أبحثْ أكثر عن تفاصيل القصة، لقد كانت محاولات إنكار وجود الله هروبًا من تأنيب الضمير.

أليس الله هو الضمير؟!

القوادة

لقد وقعتْ في الفخ الذي كانتْ ترسمه في مخيلتها بكل وضوح!

تخيلته كثيرًا بصورٍ شتَّى كي تحْذَر أنْ تغافِلَها سذاجتُها فتقع فيه، لكنها وقعت فعلًا.

حتى الآن لا تدري كيف تنازلت عن حذرها وكل ما تلقنته من أهلها ورفيقاتها حول مزالق عملها، لقد أسلمت نفسها لسلطان الحب قبل أن تسميه شيطان الحب؛ الشيطان الذي فتنها بإغوائه، فأسلمت قلبها وجسدها وكل حياتها له، وتحولت جنة الحب إلى جحيم بغيض.

هذا قبل أن تحوّلَ هي هذا الجحيم البغيض إلى متعة الانتقام.

بدأت قصتها حين وقعت في الحب مثل كل البنات في عمرها، لكن قلبَها عاثر الحظ، لم يحب سوى هاني ابن بلدها الذي أجمع الزملاء في الغربة على أنه شخص سيئ السمعة، لكنه ظل في نظرها ابن بلدها، من تأمنه على نفسها، فأبناء البلد الواحد ليسوا غرباء عن بعضهم، يجمعهم كرامة الوطن وعرضه.

لماذا أحبت شخصا هكذا؟! ببساطة لأنها من أولئك الفتيات اللاتي يجدن الجراءة والوقاحة مثيرة للإعجاب والرغبة معًا.

نظرة من عينيه تشعلها كعود ثقاب يابس، عن بعد يشعلها ويطفئها، حتى سارت إليه بقدميها ملقية خلف ظهرها كل الأعراف والتقاليد والتعليمات التي أتت بها من بلدها كمنتدبة لعمل مؤقت في المنظمة التي يعمل فيها هاني أيضًا.

طاردته بحبها واهتمامها وطاردتها رفيقاتها في الغربة بنصائح الابتعاد عنه، فسمعته سيئة مع الفتيات، خاصةً بنات بلده، يلاحقهن بمضايقاته وتحرشه عوضًا عن حمايته لهن من المضايقات والتحرش.

يثق أن ابنة بلده أكثر خوفا من غيرها، وخوفها هذا يجعلها تسكت عن كثير من المضايقات والتعدي خشية الفضيحة والعيب. لكنها رغم المحاذير مفتونة به حد الانقياد وتختلق له ألف عذر.

حتى وهو يعبث بعقلها قبل قلبها ترضخ له، فأحيانًا يقول لها إنها قادرة على تغييره، وسيتحول بحبها واهتمامها إلى رجل آخر، وأحيانًا يهملها حتى كأنه لا يعرفها.

يعذبها ببعده واهتمامه فتنصاع لطلباته كي لا يحرمها وجوده، حتى خسرت بين يديه كل شيء ذات أمسية موثقة بالصور والفيديو دون أن تشعر.

ذهبت ريم معه بقدميها خلسة من كل شيء حتى حذرها وتعقلها، تحررت من كل القيود حتى احترامها لنفسها وما تفعله.

ولقد أفاقت من سكرة غرامها على صدمة أنه حقير فعلًا، قام بتوثيق لحظات استسلامها له لتكون أداة تهديد بالفضيحة.

كانت تظن أنه يفكر في إرغامها على المجيء إليه كلما اشتاق إليها، أو في أسوأ الأمور يطلب منها أموالًا تنفقها عليه، لكنَّه كان يخفي عنها ما هو أشد بشاعة من كل خيالاتها وأوهامها.

لم تعُدْ تخشى الفضيحة فقط بل حتى العودة إلى بلدها بعد انتهاء مهمة المنظمة التي تعمل لصالحها، ولم تعدْ تملك نفسَها، أصبحت لعبة طيعة بين يديه تحبه بجنون وتحقد عليه بغلّ.

كان يشركها في الإيقاع بخصومه في العمل، يرسلها كفتيات الهوى في مهام يقبض هو ثمنها، وكانت تذهب مرغمة فاقدة الرغبة حتى في الرفض.

تتخيل المشاهد التي التقطها لها فتستقيم حيث يأمرها دون اعتراض خوفًا من الفضيحة، وكل مرة يخبرها أنها المهمة الأخيرة، وأنه سيصطفيها لنفسه ويتزوجها، فهي شريكة حياته وعمله.

كان هذا منذ زمن طويل.. الآن هي شخصية أخرى.

تنتقم من الفضيلة التي خذلتها باسم الحب، وتجد سعادتها في الانتقام ممن يراها امرأة بلا شرف.

منذ سنوات وهي تعمل أمام الناس كموظفة في المنظمة التي أصبح هاني يترأسها، لكنها خلف الجدران المملوءة بالأسرار تتمسح بقدميه بغرام لم يدفنه تحويلها إلى عاهرة يمارس من خلالها الدعارة كعمل يدر عليه مالًا وسلطة، وفيما هي تنتظر المرة الأخيرة اعتادت العمل كل مرة.

حتى حين طلب منها الحصول على فتيات جديدات في هذا العمل من بنات بلده خاصةً، أوقعت في شباكه كل من تكرهها أو نالت منها بكلمة جارحة، كانت تستمتع حين تقع فتاة جديدة ترى في نفسها الأفضلية عليها.

وأصبحت تفوقه شيطانية في أعمالهما، إلى أن ظهرت سلمى فأفسدت عملهما وكل شيء.

كانت مندوبة جديدة ما إن وطأت مقر المنظمة حتى تعلقت نظراته بها، لم يخطئ حدس ريم هذه النظرات،

لقد وقع معشوقها في حب سلمى. وباتت نظراته تلاحقها بلهفة حيث حلت.

وحين عرضت عليه الإيقاع بسلمى في عملهما كانت تختبره فقط، وقد صدق ظنها حين رفض رفضًا قاطعًا ذلك.. وأكد صارخًا ووجهه ينقلب إلى صورة موحشة:

- إياك أن تقتربي منها، اتركيها بعيدًا عن عملنا هذا.

وابتسمت في وجهه بهدوء واستسلام، كانت تعد العدة لانتقام أكثر دهاءً.

هذا العمر الذي قضياه معًا أتاح لها معرفة كل شيء عنه؛ ماذا يحب وماذا يكره، تعرف مَن عدوه ومَن صديقه، ولقد انتقت أشد أعدائه كراهية له لتجعله الفائز بفتاة أحلامه؛ سلمى.

راقبت علاقتهما لشهور طويلة قبل أن تقود سلمى بيديها إلى حيث قادها هاني يومًا، وقامت مع عدوه اللدود بذات الخطوات التي ملّتها لطول ما تفعلها مع كلِّ ضحية.

وانتظرت اليوم الذي ترى فيه وجه هاني وهو يرى مقاطع الفيديو التي أعدتها له بكل الحقد والغيرة في صدرها.

لم تُبالِ بمصير سلمى التي انهارت بين يديها وهي تحملها ذنب مصيرها الذي تنويه، ولم تسأل أي مصير هذا، لعلها تفكر في قتل نفسها، لقد فكرت ريم بهذا الحل يوما بل تمنت لو قتلها هاني بدلاً من تعذيبها.

لم تفكر بها بل عاجلت لتلتقي هاني قبل أي أمر يفسد متعتها في الانتقام.

أعدت مجلسهما المعتاد لمناقشة أي عمل يخصهما، وأمام شاشة العرض جلست بهدوء لا يشبه انفجارات الأحاسيس داخلها.

كان ينتظر مشاهدة شيءٍ يخص عملهما، لكنَّ الصعقة نالت منه من أول مشهد، فقد حرصت على أن يكون المشهد الأول هو القاضية..

ولم يمهلها التشفي أو الشعور بالسعادة استدار إليها بجنون وهو يصرخ:

- يا عاهرة ..يا عاهرة.

وأطبق بيديه على عنقها وهي تغرق في الضحك، وانطفأت ضحكاتها مع ضغط يديه على أنفاسها، وأطلقت لسانها في وجههِ ساخرةً للمرة الأخيرة.

المتحرش

مايا الهادئة كالنسمة، الرقيقة كالفراشة، المتسامحة مع الجميع..

التي تتغاضى عن استفزاز غير المهذبين، وتهرب إلى النوم حين تنشب المعارك والخلافات في سكن الطالبات..

لا تحب الصراخ أو الضجيج، ولا تدافع عن نفسها حين يساء فهمها، تظل صامتة تنتظر انتهاء كل شيء.

أقسى ما تفعله ألا تنظر نحو الزميلة أو الصديقة التي تضايقها أو تتحامل عليها.

رائعة في كل شيء إلا في رفضها السفر في الإجازة إلى عائلتها في الوطن.

هذا الشيء الذي لم أفهمه في مايا الرقيقة!

رغم أنها من عائلة ميسورة الحال تستطيع التكفل بسفرها كل إجازة كما تكفلت بدراستها خارج البلاد.

عندما سألتها عن ذلك قالت لي بهدوء:

- وسائل التواصل قرّبت كل بعيد، إنني أتحدث مع أمي كل يوم، ثم إنه لا يهم أن تكون بين عائلتك بجسدك، المهم هو ذلك القرب الروحي الذي يجعلهم يشعرون بك فعلًا.

كل تصرفات مايا يمكن أن أجد لها تفسيرًا، حتى تلك التصرفات الغريبة التي لم أكن أفهمها كبرودها أمام المسائل العاطفية يمكن تفسرها بتأثير البيئة والتربية.

مثل ذلك اليوم المضحك الذي لن ننساه حين تقدم زميلنا وليد من مايا وخصها بقطعة شوكولاتة فاخرة دسها بين أوراقها الملقاة أمامها على الطاولة، يومها انتفضت واقفة مبعثرة الأوراق ومشاعر وليد ونظراتنا المرتبكة، كأنما دسّ ثعبانًا بين أوراقها، وليس قطعة شوكولاتة سالت لها نظراتنا غبطة.

رفضت لمسها بحجة أنها تكره الشوكولاتة، وتقاسمتها أنا مع أقرب الزميلات ونحن نداري ضحكاتنا من خيبة الأمل المرتسمة في عيني وليد.

كل شيء يمكن تفسيره إلا ما فعلته بزميلنا وليد بعد ذلك.

وليد الشاب الذي تتمناه كل فتيات القسم فضّلَ أن يتودد إلى مايا الباردة والهادئة، والتي تشيح بوجهها عنه حين تصدمنا نظراته المتلهفة المعجبة وكأنها لا تراه.

أصبح مرغمًا يلاحقها في أرجاء الجامعة، ويناديها كي تلتفت إليه في حديث عابر، وحين يحظى بدقائق تقف معه في حديث عام يتفصد العرق منه انفعالًا وارتباكًا، في حين يغلفها الهدوء والرصانة، فلا نعرف بماذا

تشعر حيال غرامه الواضح بها، لكن صلابتها التي كانت تضحكني أحيانًا تحوّلت إلى فزع حين خرج وليد من حجرة المعمل ذات يوم وهو يشتعل نيرانًا أمام أعيننا جميعًا.

***

كانت في العاشرة حين أغلق أخوها الأكبر باب الحجرة، فأيقنت أنه سيعاقبها كعادته؛ لأنها لم تستمع لندائه من فورها، حين تملأ البيت ضجيجًا كعادتها أثناء لعبها فلا تسمعه.

لم تصرخ منادية أمها، فهي خارج البيت؛ والدها الطبيب أيضا في العيادة لذا فضلت الاستكانة حتى لا تثير غضبه أكثر.

لكنه كان يبدو لها مريضًا، والعرق يتفصد من جبينه، وذراعه ترتجف وهو يسحبها من يدها ويطلب منها الجلوس على ساقيه.

أحاط خصرها الصغير بذراعيه وهو يضغط جسدها نحو الأسفل..

لم تكن تفهم هذا النوع من العقاب وحركاته المضطربة وأنفاسه المتلاحقة خلف أذنها، لكنها حين شعرت بذلك الشيء الصلب الساخن ينزلق بين ساقيها ارتجفت

برعب، وانتابها الألم من احتكاكه على جلد فخذيها وأخوها يضغط على جسدها أكثر .

كانت دقائق مؤلمة وصادمة وهي تتحمل انفعاله؛ كي لا يغضب أكثر، وحين غرز بقوة ذلك الشيء صرخت فكتم صوتها بيده.

انهمرت دموعها، فهذا العقاب مختلف، ويجعلها تتمنى لو عاقبها أي عقاب آخر لا علاقة له بمناطقها الحميمية التي تحذر أمُّها كثيرًا من العبث بها، لكنه أخوها من يعبث بها وليس هي، فأي عقاب هذا؟!

لكن ما جعلها تكره أخاها ما تبقى من عمرها هو ذلك التهديد المرعب الذي أطلقه في أذنها بصوت متراخٍ كأنه ينفث رغوة سميكة في أذنيها:

- إذا أخبرتِ أمي أو أي شخص بما حدث فسيحدث لك هذا..

وأتبع كلامه بفتح النافذة وحملها مدليًا إياها تاركًا رأسها يتأرجح دقيقة في الهواء وهي ترى الشارع البعيد جدًا يقترب كأنه سيبتلعها.

تعالت صرخاتها برعب وانسكبت دموعها فيما أطلق ضحكة مرح وهو يحتضنها مهدئًا كأي أخ يعابث أخته الصغيرة، وهو يكرر تهديده قائلًا:

- سأرميك وأقول سقطت وهي تلعب.

منذ ذلك اليوم صارت هادئة كثيرًا، تلعب في ركن حجرتها بدماها بصمت أرْضَى الجميع، حتى وهي تهدد بالحرق دميتها المفضلة التي تعاقب بقية الدمى ذات العقاب القبيح الذي فعله أخيها بها تهددها همسًا؛ كي لا يسمع أو يعلم أحد.

وحين يناديها أخوها تتظاهر بالنوم، لم يكرر عقابه ذلك أبدًا، بل أغدق عليها كل يوم بالشوكولا التي كانت ترميها من النافذة كما هي ليبتلعها الشارع.

عندما كبرت أكثر وفهمت أكثر أحرقت دميتها المفضلة، أشعلت فيها النار في سطح المنزل، وغرقت في شعور بالطمأنينة والأمان وهي تراها تحترق وتتحول إلى رماد.

وحين كبرت نست أغلب ذكريات طفولتها إلا تلك الذكرى الموجعة الصادمة، تحول حذرها من الصبيان إلى نفور وكراهية دفعاها إلى التفوق عليهم عقليًا ما دامت تؤمن بضعفها البدني.

وحين قرر أهلها ابتعاثها إلى الخارج للدراسة كانوا على ثقة أنها فتاة غير سهلة، ولا يمكن أن يسلبها أي شاب عقلها ورصانتها.

ومرّت السنواتُ الثلاث الأولى لدراستها كما يرام، حظت برفقة ممتعة وصداقات جيدة في السكن، ابتعدت عن الذكور إلا في حدود تعامل الزمالة والندية.

يمكن أن تنهي دراستها الجامعية بسلام وتُعِدُّ العدة لدراسات عليا لولا هذا الشاب وليد الذي بدأ فعلًا يثير ضيقها.

ذلك الصباح في معمل العلوم أضجرتها نظرات وليد اللزجة وهي تلتصق بها وتطوف حولها في كل حركة وسكنة، أضجرها تعمده البقاء قربها وإحاطته بحركتها.

زاد غيظها حين أصبح شريكها في إجراء التجربة على طاولة واحدة، ولم تشك لحظة واحدة أنه يتعمد تأخير خطوات العمل كي يبقى معها أطول وقت ممكن.

وكان له ما أراد، إذ تسلل الزملاء من حولهم وبقيا بمفردهما في حجرة المعمل المنعزلة، وبدأ يحادثها في أمور عامة.

صوته يزداد ثقلًا ونظراته تثير توجسها، وهذا التعرق على جبينه بلا مناسبة يحرك أحشاءها كأنها ستتقيأ.

كان يخبرها بإعجابه بها منذ بداية الدراسة، وكيف أصبح هذا الإعجاب هيامًا وعشقًا جعله يعرف كل

شيء عن حياتها وعائلتها، ويرغب في السفر لزيارة أهلها في الإجازة.

كل هذا وهي صامتة لا تجد تفسيرًا لهذا الخوف الذي يقبض أحشاءها.

أصبح الجو خانقًا رغم تهوية المعمل الممتازة، واقترابه المفرط منها يثير أعصابها، وأخيرًا مد يده يسحبها إليه برفق وهي مشدوهة قبل أن يسندها إلى الجدار ثم يلتصق بها فجأة.

لم تصرخ وإن حاولت الإفلات من بين ذراعيه، لكنّ رائحته التي أصابتها بالخدر أرعبتها، حاول التقاط شفتيها في قبلة، لكنها كانت تقاوم ثقله على جسدها بعناد، شعرت بذلك الشيء الصلب يضغط بإلحاح على وسطها وجن جنونها رعبا.

لا تدري كيف دفعته بقوة وتناولت من الطاولة زجاجة تعلم محتواها لتقذفه بها وهي تجري خارج المعمل.

انطفأ خوفها مع صرخات وليد الذي اندفع خارجًا عقبها والنار تشتعل في ثيابه والزملاء في الرواق يحاولون إطفاء النار.

استدارت تمشي بثقة والأمان يتسرب إلى نفسها وخطواتها.

الشاذ

لا أحد يصدق أنها مرت من هذا المطار قبل أشهر كأسعد إنسان على وجه الأرض.

طارت بأحلامها من شرق الكرة الأرضية غير عابئة بكل المخاوف التي تبثها همسات من حولها عن علاقة افتراضية انتهت بالزواج من رجل أحلامها الذي لا تعرفه إلا عبر شاشة الجوال، لقد تحدى الحب كل العادات والتوقعات.

وها هي الآن تجر خيبتها وسنوات عمرها الخمسة والعشرين كأن حياتها انتهت، لم تستوعب بعد أنها تزوجت حبيبها الفاتن لتتفهم طلاقها منه.

عائلتها الكبيرة دفعت ثمن انفتاحها قلب ابنتهم الصغيرة الجميلة، عائلتها التي تتفاخر بالحرية التي منحتها لفتياتها حتى أتى الوقت الذي تطلب ابنتهم الارتباط بحبيبها عبر مواقع السوشيال ميديا.

خفف حدة الوقعة أن الشاب الذي يعيش في النمسا شاب ناجح، فقد أنهى دراسته واستقر هناك، كما أنه من عائلة ميسورة الحال ومعروفة.

كان حبًا جارفًا وانسجامًا عقليًا، انتهى بالخطبة في تفاصيل كثيرة متعبة بسبب أن الشاب يعيش في

الخارج، ولا يمكن وضع أخلاقه وطبائعه تحت المجهر الأسرى.

لقد تقصَّتْ عنه الأسرة في كل مكان تستطيعه، حتى إن والدها اضطر للسؤال عنه أصدقاءه الافتراضيين عبر النت، إلا أن كل تلك التفاصيل التي أهمت عائلتها لم تهمها، ما يهمها أن هذا الرجل فاتن بحق، استطاع سلب قلبها وعقلها بحلاوة لسانه واهتمامه وثقافته الواسعة وانفتاح عقله وتفكيره.

طاردها طويلًا في دهاليز العالم الافتراضي وبرامجه المتنوعة، حتى أوشك أن يكون حقيقيًا في حياتها، تستيقظ على ملامحه وتنام على هدهداته.

سألت عائلتُها عنه كثيرًا، ورغم وجود الانتقادات حول انفتاحه الزائد كان الأمر يُعزَّى لمعيشته في بلد أوربي، وهذا أمر لا يستطيع تفهمه شخص يعيش في بلد منغلق متزمت.

الرهبة المتوقعة تمثلت في سفرها وحيدة إلى بلد بعيد لملاقاة زوجها بعد عرس أسطوري، أعده أهل الشاب للفتاة كمراضاة عن غياب العريس الذي عاش معها كل اللحظات افتراضيًا عبر الانترنت.

وكان لقاء كالحلم في هذا المطار بالذات.

هنا استقبلها حبيبها بكامل أناقته ووسامته، وكان موكب عرسها من مطار فيينا خياليًا، لقد قبضَتْ على السعادة بيديها ذلك اليوم..

حلقت به ومعه، وكأن سيارتهما تجرها خيول مجنحة طارت بهما عاليًا حيث النجوم.

قبل أن ترتطم بصدمة العمر عقب شهور من الزواج فقط.

وجدت بيتها كما تمنته، وعاشت أيام عرسها كما تحلم كل فتاة؛ رحلات ومطاعم وسهرات ونزهات في أماكن ساحرة، فيض متبادل من الحب والاهتمام والغزل، وكلٌ منهما يكتشف الآخر أكثر.

لم تُخفِ فرحتها حتى مع استقرار حياتها إلى الشكل الرتيب بينهما، وانشغاله بعمله، في البداية أثار استغرابها عدم تلهفه لممارسة الجنس كل ليلة معها كما يفعل العرسان عادة، كان يكتفي بليلتين في الأسبوع فقط، وهذا خلاف ما تسمع وتشعر به هي من رغبة محتدمة حياله.

تنام على قبلاته التي تشعلها، وينام هو باردًا مرتاح الضمير.

لم يَخف حُبُّه واهتمامه بها وتوفير كل ما تتمنى، بل راح يناقشها فيما ترغب أن تفعله مستقبلًا بحياتها، هل

ترغب في الالتحاق بالدراسة أم ممارسة أي نشاط مجتمعي يملأ فراغ وقتها، يتحدث كمن يرتب حياة دائمة سعيدة لشريكين متفاهمين.

لكنَّ شعورًا مبهمًا بدأ يجتاحها بتوالي الشهور على زواجهما، كان هناك شيء مفقود لا تفهمه، هناك شرارة منطفئة بينهما، هل هو بروده الجنسي نحوها؟ أم رغبتها التي لم تشبع بعد منه ومن مداعبات العشاق المفترضة وشبقهم؟!

أحيانًا تشعر أنه يعاملها بحب وتفانٍ كما يعامل الإخوة أو الأصدقاء بعضهم، أين لهفة العشق التي كانت تسيل وتتناثر على الواتس أو الماسنجر؟!

تحاول رغم خجلها مداعبته واشعال حرارته بدفء رغبتها واشتهائها لكنه يقبلها وينام هانئا فيما تشتعل حتى تنطفئ احباطا.

ولم يحدث بينهما صدام أو مكاشفة إلا حين بدأ في التأخر للسهر خارج البيت ليعود مخمورًا وينام كالقتيل بجوارها.

عاتبته بلطف في البداية؛ كيف يمكنه السهر خارجا بمفردة دونها، فأجابها أن المكان للرجال فقط، سهرة خاصة بالأصدقاء الرجال، والجميع يتناول المشروبات كتقليد متبع ليس فيه شيء.

وحين يأست وتكررت سهراته الرجالية الخاصة كما يقول عنها، حاولت استدرار عطفه وشفقته عليها حين تقضي الليل بمفردها فتشعر بالوحشة والقلق دون أن تتمكن من النوم.

وكم كانت دهشتها حين نقل تلك السهرات إلى منزلها؛ كي لا تشعر بالوحشة والقلق طوال الليل.

واضطرت حينها إلى البقاء في حجرتها فيما هم يقهقهون في الحجرة المجاورة.

كانوا على الأرجح يشاهدون فيلمًا كل مرة، ويشربون القناني التي يجلبونها معهم.

الغريب أنهم لم يكونوا كثيرين كما تخيلت، أحيانًا لا يكون هناك سوى رجل واحد مع زوجها يتحدثان بلغة البلد التي لم تحسنها بعد.

ذلك المساء سمعت باب الشقة يغلق بعد ذهاب الضيوف الثقال وعمّ الصمت خارج حجرتها، فأدركت أن زوجها وحيدًا الآن، وربما يرتمي مخمورًا على أحد المقاعد في حجرة الضيوف فنهضت كي تقوده إلى فراشه قربها.

وضعت مزيدًا من العطر وخرجت تجر رداء نومها الشفاف في خطوات أقرب للهمس.

فتحت الحجرة بهدوء وعبر الإضاءة الخافتة شاهدت ما تمنت لو فقدت بصرها قبل رؤيته.

أغلقت الباب بقوة كرد فعل مباغت رغمًا عنها، وهي تهرول مصعوقة إلى حجرتها تتعثر بردائها.

"هل ما شاهدته حقيقة يا إلهي؟!" كانت ذاهلة لا تدري هل تبكي أم تستفرغ ما في جوفها.

لم تسمع الخطوات المسرعة في الخارج، ولا انغلاق باب الشقة بعنف، وحين ظهر وجه زوجها لم تتمالك نفسها من أن تقذفه بكل شيء تصل إليه قبضتها، نعتته بكل الصفات التي خطرت على بالها قبل أن تنهار باكية على الأرض وقد تمزقت غلالة نومها من جذبها لنفسها في هياج شديد.

كل هذا وهو واقف بصمت كأي مذنب يعرف مدى صدمة امرأة في حبيبها.

حين هدأت فقط فتح فمه ليعتذر لها:

- أنا آسف لما شاهدتِه؛ أدرك أن هذا يجرح أنوثتك، ولكنني لا أستطيع التوقف وقد حاولت.

أتاه صوتها ممزقا كملابسها:

- لماذا تزوجتني إذًا ما دمتَ رجلًا شاذًا؟

فرد بصوت مرتج:

- ظننتك شخصية منفتحة ستتفهم هذه الخصوصية، لم تكوني هكذا في نقاشاتنا عن الحرية الشخصية.. ظننتك ستتفهمين حياتي الخاصة.

صرخت بصوت هستيري أثار رعبه:

- لماذا تزوجتني إذًا أيها الشاذ الحقير؟ لماذا؟!

قفز مرتعبًا من مكانه، وقد طار كل أثر للخمرة في رأسه، وغادر الحجرة والبيت بأكمله.. سيغادر حتى تهدأ نوبة غضبها، "هذا هو الحل" كان يحدث نفسه بثقة.

ولم تهدأ إلا عقب الاتصال بذويها وإخبارهم بما رأت ورغبتها في الطلاق.

رغم كلمات التشجيع والتفاؤل التي أسرفت عائلتها في ضخها في قلبها المكسور، إلا أنها تبددت طوال الليل، وتلاشت أنفاسها وهي تفكر في هذه الفاجعة التي حطمت أحلامها الوردية.، لم يكن يخونها حتى! كيف ستغار من رجل آخر يحتل مكانها بين ذراعيه.. إنها فقط تشعر بالغثيان والقرف والإهانة وصدمة كبرى.

عليها أن تفكر بعقل "منى" الواعية المثقفة، وليس بقلب منى العاشقة المنكسرة.

سيعود كمال مع الصباح، وسيحاول النقاش معها، وعليها أن تناقش نفسها أولا، لا تدري متى غافلها النوم لترتاح من صراخ نقاشها مع نفسها لكنها استيقظت في موعد عودته من عمله.

وكما توقعت عاد يحمل غداء لكليهما، وكأن شيئًا لم يكن.

دعاها للغداء وتناولاه بصمت، أعد لهما القهوة وبدأ بفتح الموضوع بكل هدوء:

- أتمنى أن تكوني عذرتني وفكرت في الأمر.

أجابت برجاء وهي تغالب غصتها:

- نعم فكرت كثيرًا، ويمكنني التغاضي عما رأيت إذا وعدتني أن تكون المرة الأخيرة وأن نكون زوجين كما كنا نحلم أيام الخطبة.

فرد ببرود وهو يقلب شفتيه بتعجب:

- يا عزيزتي لا أستطيع أن أعدك بشيء كهذا، فهذه رغبة جامحة لا أستطيع التوقف عنها وقد حاولت.

نهضت وهي تقول بحزم: "هذه حياتك، لكنني أرغب بالطلاق، وسأعود إلى الوطن لقد أخبرت أهلي بذلك".

ما إن أكملت جملتها حتى قفز كالملدوغ، وقد انقلبت ملامح الهدوء المهذبة لتحل سحنة مخيفة على وجهه وهو يمسك كتفها قائلًا:

- ماذا قلتِ؟ ولمن قلت؟ ماذا قلتِ؟ تحدثي.

ابتعدت بخوف وهي تقول بعناد: "قلت كل شيء لأهلي؛ كل شيء، أنا لا أخفي عنهم شيئًا، وأنت تعرف ذلك وأولها علاقتنا عبر النت".

في أسوأ تخيلاتها لم تكن تتوقع ما يحدث لها لكن الصفعات توالت على وجهها قبل أن تسقط أرضًا ذاهلة أكثر من ألمها، وهو يصرخ كالمجنون:

- أخبرت أهلك يا ملعونة! تفضحينني بين هؤلاء الناس وعقولهم المتخلفة! ستفسدين علاقتي مع أهلي التي من أجلها تزوجتك، وكنت سأتحمل غباءك كل العمر، تدمرين الصورة التي تعبت لسنوات في رسمها في عقولهم.. لا تظني أني سأتركك تفعلين ذلك أنت وأهلك سأدمرك قبل أن تفعلين.

لا تدري حتى الآن كيف استطاعت النجاة من بين يديه وأقدامه وهو ينهال عليها ضربا، كيف نزعت نفسها مهرولة إلى خارج المبنى لتتمسك بأول إنسان صادفها كي تحتمي به من أحب إنسان لها!.

لقد عاملتها الشرطة هناك برأفة لم تجدها من حبيب قلبها وحلم حياتها الافتراضي الذي قذفها حبه إلى غرب الكرة الأرضية وحيدة من أجله فقط.

وهي تسير في المطار عائدة إلى وطنها تتذكر تهديده المخيف بتشويه سمعتها إن تجرأت وأخبرت أحدًا حول حياته وحريته الشخصية كما يسميها.

هي تعرف نظرة الناس ورأيهم مسبقا، تعرف أن المرأة أقرب إلى أذهانهم فيما يخص الشرف والسمعة وطلاقها منه شهادة كافية تدينها هي.

المجتمع الذي يغض طرفه عن الرجل يراقب المرأة بعينين مفتوحتين سيصدق أي تهمة تلقى عليها، فهي امرأة أُضيفت لها شهادة مطلقة.

فضيحة

انتهت من ملء الاستمارة ودفعتها إلى المرأة الواقفة أمامها بأصابع متشنجة.

إنها تسجل فضيحة جديدة في نظر أبيها، بل في نظر الجميع حولها، لكنّها فضيحة مكتومة لن تنتشر بين بقية الورق التي تجمعها المرأة حول تعنيف بنات جنسها.

لم يعد هناك فضيحة أكبر من ظهورها سافرة في برنامج تلفزيوني يتحدث عن حرية المرأة.

حرية المرأة.. يا لها من جملة فضفاضة قيدت الكثيرات! زفرت بضيق يطبق على أنفاسها.

ما يسمى حرية المرأة لا علاقة له بما حدث لها مطلقا، كل ما كانت تريده هو أن تعيش فقط، وكانت كل محاولاتها للعيش تبوء بالفشل.

حاولت أن تكون زوجة وتكوّن أسرة لا تشبه أسرتها المفككة بسبب والدها المزواج، لكنها فشلت في الإنجاب كما قيل لها، فتزوج عليها زوجُها، حاولت الطلاق كي تحافظ على نفسيتها الممزقة بسبب غيرة النساء، فتمزق جسدها تحت سياط والدها وهو يقنعها "بالحسنى" أن الطلاق للبنت عيب.

والدها الذي يطلّق إحدى نسائه كلما أكتمل النصاب بأربع؛ كي يتزوج أخرى يرى أن الطلاق عيب في حق الفتاة وحكم بالإعدام عليها، هكذا صرخ في وجهها "الطلاق حكم بالإعدام على البنت يا فردوس".

إذًا لقد أعدمَ والدُها خمسَ فتيات لأنهن من أسر فقيرة فقط.

قبولها بأول خاطب جلبه أبوها لم يغفر لها إصرارها على الطلاق منه حين تزوج وتركها متجاهلًا مشاعرها.

كان أول قرار فضائحي اتخذته في حياتها بعد طلبها الطلاق هو الهروب إلى بيت خالها؛ كي يساندها، توالت بعده القرارات التي هيأتها لتكون فضيحة كاملة الأركان ومرشحة للقتل.

بهروبها إلى منزل خالها نشبت الحرب بين والديها، وأصبحت والدتها التي كانت بمنجى من الطلاق لكونها الأولى وأم الأولاد الذين رمتهم أمهاتهم صارت عرضة للطلاق والتسريح من الخدمة.

توسلات والدتها ترن في أذنيها كمنبه في كل الأوقات:

- يا بْنتي، يا فردوس، لا تفضحيني، سيطلقني أبوك بعد هذا العمر، ارجعي إلى عقلك وزوجك، واقبلي

نصيبك من الحياة، واحمدي الله أنه باقٍ عليك رغم أنك ما تنجبين.

فترد بغيظ:

- حسنًا يا أمي، كيف عرفتِ أن هذا نصيبي من الحياة؟ فقط كيف عرفتم أن هذا الحال هو كل قسمة الله لي في الحياة؟! أريد أن أصدق هذا فقط.

ترفض العودة وتنتهي شفقة الخال حين يرى أخته المسكينة والمهددة بالطلاق أحق بشفقته من ابنتها المتمردة.

ويأتي الحل من حيث لا تتوقع حين يطلقها زوجها نزولًا عند رغبة زوجته الجديدة.

لتعود إلى منزل والدها مكللة بعار الرفض من زوجها والقطيعة من أبيها.

لا تتذكر متى اتخذت القرار الثاني والمدمر.

لكنها ملكت من الشجاعة ما جعلها تخبر والدتها ذات يوم عن رغبتها في مواصلة دراستها الجامعية بعد انقطاعها سنوات طويلة، مبررة رغبتها بأنها لا تريد أن تظل تحت رحمة والدها في الإنفاق عليها، وهو الذي يقتر على كل أبنائه.

قامت قيامتها في البيت، فهي مطلقة؛ مطلقة.. ألا تفهمين ماذا تعني مطلقة؟!

الناس تحصي أنفاسك وتراقب حركاتك، حتى صديقاتك يخفن منك على أزواجهن.. وملأ صراخ أبيها البيت.

"المطلقة باب مفتوح لكل داخل" هكذا أخبرتها أمها وهي تعلمها برفض الأب القاطع أن تتخطى عتبة البيت.. لم تيأس.

تعرف أن مفتاح قلب أبيها بين فخذي زوجته الجديدة التي تصغرها عمرًا، استمالتها كثيرًا كي تقف إلى جوارها، كانت العروس فتاة قروية باهرة الحسن شديدة الغباء، كل ما تتقنه من فنون الزواج هو التمنع والرفض حين يأتيها زوجها الذي في عمر والدها.

غمرت العروس الفرحة أن ابنه زوجها تلاطفها وتتحدث معها، فكل من في البيت الكبير يعاملها كنفاية.

تعرف أنهم يغارون منها، فالكل يشهد بجمالها رغم ما تلوكه الألسن عن أصلها، وفردوس رغم نقمة أبيها عليها إلا أن شخصيتها نافذة على الجميع، لا تدري لماذا تخافها كل نساء البيت كأنها نوع آخر غيرهن.

فكرت فردوس أن مساعدة زوجة أبيها من باب حيل الحرب، فهذه الفتاة لا تكاد تفهم لماذا خلقها الله، مستسلمة لكل شيء بسعادة غامرة.

وفردوس تخوض حرب حياة أو موت.

تتساءل فردوس وهي تتأمل العروس: ترى هل فكرت هذه المسكينة أن مصيرها لن يختلف عن سابقاتها؟! سيطلقها والدها ما إن يشعر بالملل من شخصيتها السمجة أو يعجز عن الإيفاء بحاجاتها الجنسية.

يفضل أبيها أن يكون مسيطرًا دائما، لا يحب أن يظهر عجزه في أي أمر، فقد طلق أحب نسائه لأنها عايرته بعجزه عن قضاء ليلة معها.

وبقي لأشهر يتحسر على قدرتها في ملء عينيه مقارنة بأي امرأة، يعاير زوجاته بها فتبتسم والدتها في شماتة حين تتذكر معايرتها له بسبب عجزه.

حتى إن فردوس لا تفهم لماذا وافقت هذه الفتاة على والدها رغم سمعته كرجل مزواج. قالت لها والدتها بتشفٍ:

- تزوجها لأنها جميلة، كي تيقظ الموات فيه، وقبلته هي وأهلها كي يزيحوا عن أسرتهم وصمة أنهم "مزاينه"، ومع ذلك فقد صدق المثل القائل "الجمال في الأطراف".

صرت فردوس على أسنانها بغيظ:

- أطراف ماذا يا أمي؟! لا يوجد في الناس طرف ووسط، الكل سواسية، هذه التقسيمات لم يأتِ بها الله،

ولا توجد في أي بلد غيرنا، الناس سواسية كأسنان المشط وفرشاة الأسنان.

- ومنذ متى يعرف أبوك فرشاة الأسنان؟ اللعنة عليه، يريد أن تكون نساؤه في غاية الكمال والجمال وينسى تنظيف أسنانه.

هكذا هي والدتها منذ تزوج والدها أول نسائه عليها منذ سنوات طويلة، لا تترك مناسبة كي تلعنه وتخرج عيوبه، لكن ما إن يأتي إليها حتى تفرش في طريقه أطيب الكلام والمديح، وتغرقه بالحب والحنان.

وحين تسألها فردوس: كيف تستطيعين ذلك يا أمي؟

ترد بأسى: كي نعيش يا بنتي.

وفردوس حاولت أن تعيش فقط لكن بطريقة طبيعية، جعلت عروس والدها تنتزع موافقته بالحيلة الوحيدة التي تحسنها الغبيات من النساء، والتي لا تفهم سواها؛ تتمنع كثيرًا حتى يشتعل منه كل عرق ميت، وتطلب منه ما تريد ويوافق مرغمًا؛ كي توافق على إطفاء رغبته بالطرق التي يريد.

استغرق الأمر أيامًا حتى انتزعت الموافقة الأكيدة التي لا تراجع فيها، لقد ورثت عناد أبيها ومكابرته وهو يعلم ذلك.

والتحقت بالجامعة وزادت قيودها أكثر..

مر عامان ذاقت فيهما من التعنيف بحجم ما ذاقته كل سابق عمرها، وكأنما لم يعد والدها يحتمل وجودها لتدخل وتخرج من البيت جلب لها زوجًا جديدًا.

فكرت في نفسها: لو كان زوجًا مناسبًا كنت سأقبله فقط كي أعيش.

كان شابا لم يسبق له الزواج بخلافها، وهذه نقطة في صالحه، وكان ميسور الحال ووسيمًا أيضًا، لكنه كان مقعدًا.

قصت عليها والدتها حكاية صديقتها وابنة قريتها كي تثبت لفردوس أن الحياة ليست ساقي رجل أبدًا.

صديقتها من أيام الصبا كان حظها في الجمال ضئيلًا، رغم روحها الجميلة إلا أن فرص الزواج كانت صفرًا، وهذا أمر مروع في قرية عدد فتياتها محدود.

عاشت بين إخوتها كالخادمة لأولادهم بعد موت والديها، قانعةً بنصيبها من الحياة، هذا النصيب الذي يقسمه الناس لبعضهم مؤكدين أنها قسمة الله.

وذات يوم جاء أخوها الأكبر وسألها "هل توافق على عقد قرانها بصديق لهم يريد زوجة صالحة"، وأراها صورة بمقاس ٢×٦ بالأبيض والأسود تخص بطاقات الهوية لشاب جميل الهيئة تنضح ملامحه بالطيبة والحزن.

تأملت صديقتها الصورة مليًا وهي تشعر أن هذا الرجل مكافأة السماء على صبرها في تحملها نساء إخوتها اللاتي لم يكن يتركن ليلة تمر عليها دون بكاء وهن يذكرنها أنها بائرة، وألقت والدة فردوس ناتج تفكيرها قائلة:

- الرجل ليس عدوًا للمرأة بقدر عداوة المرأة للمرأة، لقد كانت نساء إخوتها سببًا لقبولها بأي طارق لبابهم.

وافقت صديقتها بلهفة لا تكاد تخفي سعادتها، وتم عقد القران وتحديد يوم العرس خلال يومين فقط، وزفت إلى قرية زوجها كعادة الفتيات في اليمن حين تكتفي بصورة للزوج مثلما يكتفي الكثير من الرجال بنظرة قريباته للعروس.

يوم زفافها تفاجأت أنها تزوجت رجلًا مبتورَ الساقين تمامًا وبذراعين قصيرتين.

ما زالت صديقة والدتها بعد هذا العمر وخمسة من الأبناء ترد على تساؤلات صاحباتها بكثير من الخجل وبضحكة منكسرة حول تفاصيل ليلة الدخلة وهن يسألن بفضول وجراءة: "كيف صنعتم ليلة الدخلة؟ ومن الذي قام بالأمر"، ويغرقن بالضحك.

فترد بغمغمة خجلى:

- كان لا بد من إتمام الأمر، الجميع كان ينتظر "قطعة القماش".

فهل يتوقع والدها أن تقبل هذا الزواج؟!

لا، لن تقبله ولو من باب الشفقة ونذر نفسها لعمل الخير، ليست طيبة إلى هذا الحد، لا تريد التضحية بنفسها من أجل أحد؛ لذا رفضت وأصرت على الرفض.

هددها والدها بحرمانها من مواصلة الدراسة، بل منع خروجها تمامًا، ومزق ملازمها وكتبها وخمار الجامعة الأنيق.

وباشر الإعداد للزفاف كأن رفضها نوبة عارضة ستذهب حين تجد كل شيء أصبح واقعًا.

حين قدم المأذون مع عدد من الضيوف أقارب العروس وبعض وجهاء الحي كالعادة رفض والدها أن يسمع المأذون صوتها بالموافقة، لكنه أصر على سماع موافقتها، قائلًا بلهجة العليم مخاطبًا الجاهل: "إنها ثيب".

غادر والدها حجرة الاستقبال إلى حيث تجلس في محبسها في حجرتها وأخذ بيدها قائلا من بين أسنانه: "الآن ستأتين معي لتقولي للشيخ إنك موافقة وإلا

كسرت أسنانك، فلا تقدرين على فتح فمك مرة أخرى". فترد: "لست موافقة ولو قتلتني".

- حسنا يا عاصية والديك، سأجعل أختك تقول هذه العبارة بدلًا عنك، وستشكرينها حين تزفين لزوجك بكامل رغبتك.

هالتها جسارة أبيها على ظلمها وكأنها ليست رحمه، فقالت له مستعطفة :

- ألا تخاف الله بي يا أبي؟! هل تلجأ إلى الزور والبهتان فقط لتزويجي رغمًا عني؟!

فرد بكل صدق وصوته يتهدج تأثرًا:

- أنا أفعل هذا من أجلك يا عاصية والديك، لا أريد أن تظلي بلا زوج يحميك، ولا أريد أن يقال عنك مطلقة لا أحد يشكمها، الناس سيأكلون وجهي بسببك.

- لكنني يا أبي، لا أفعل شيئًا خاطئًا، أذهب إلى الدراسة وأعود إلى البيت وسيكون لي شهادة أعول نفسي منها يومًا.

- دراستك هذه هي المصيبة، تدرسين بين الرجال الذين يطمعون بك، أنت مطلقة.. هل تفهمين ماذا تعني مطلقة؟!

جرها من يدها وهو يغلظ الأيمان بأن تتلفظ بالقبول وإلا ستبيت في قبرها، كانت تعلم أن القبول يعني أن

يمتلكها ذلك الرجل، وأنها ستقضي عمرها مع شخص مقعد لا تدري كيف ستكون طباعه أو تعامله؛ لذا قررت أن تقترف فضيحتها الثالثة.

سألها المأذون بكل وضوح: "هل تقبلين بهذا الرجل زوجًا لك يا بنتي؟"

فردت بكل هدوء: "لا يا شيخ لا أقبل به، ولا أريد الزواج بقعيد."

وغشت الصدمة الحجرة، كان الوقت كافيًا كي تختفي عن أنظار أبيها حتى حين.

كانت ليلة جحيمية على كل ساكني المنزل المكون من دورين، نساءَهُ الأربع نالهن من الصراخ والتعنيف ما يكفي لشهور، لكنّ والدتها نالت نصيب الأسد كالعادة.

أين اختبأت لم يكن أحد يدري، لكنها داخل البيت لم تخرج، ولم تخبر إحدى أخواتها بمكانها حتى لا تضعف أمام ثورة والدها فتشي بها، كانت تعلم أنه إن لم يقتلها فسيسبب لها كسورًا لا تحصى.

لقد فضحته فضيحتها الكبرى كما كانت تتخيل ذلك اليوم، كسرت كلمته أمام الرجال، كسرت كلمته وصغرته.. الموت في حقها قليل، هكذا أيقنت أنه يفكر الآن.

لكنها ببساطة في كل مرة كانت تطالب بحقها المشروع: الطلاق، التعليم، رفض رجل لا تريده، لماذا تحولت محاولتها أن تعيش إلى فضائح مدمرة؟!

رحل الضيوف وحل المساء بكآبته وظلامه، استمر البحث عنها طوال الليل وحتى اليوم الثاني، ولم تهدأ ثورة أبيها أو يفكر بالخروج من البيت لعمله حتى تتمكن من الخروج من مخبئها.

أوشكت الشمس أن تنتصف السماء وصارت الحرارة في خزان الماء المهجور على سقف المنزل لا تطاق، لا تدري كيف قضت ليلتها في خزان من الصفيح، كان الأمر أشبه بالموتة الصغرى فعلًا، لكنها شعرت بالجوع والألم وعظامها تطلق صريرًا مثل مفاصل الأبواب المهجورة.

فكرت أنها ستموت هنا اختناقًا مثل فأرة إن لم تخرج ليقتلها أبوها كفتاة مفضوحة كما يسميها.

حاولت اختلاس النظر من فتحات الكسور في الخزان والهلع يذيبها أكثر من حرارة الجو، لكنها لسوء حظها لم تلمح أباها الواقف على سقف المنزل في حالة شرود ووجوم، أغراها الصمت المطبق أن تطل برأسها بتوجس لتلتقي عيناها عينَي أبيها مباشرة والذي رفع رأسه مشدوهًا أكثر منها.

انتفض كالمجنون وهو يكيل كل أنواع الشتائم لها ويصيح مناديًا أخوتها.

عادت لترتمي في أرضية الخزان الحديدي وهي تلعن حظها العاثر وليلتها التعسة التي انتهت في نقطة البداية، انتظرت مصيرها بصمت؛ هل سيضربها فقط؟ أم يرميها من سقف البيت ويقول سقط؟

لكن ما أضمره والدها كان أشد رعبًا وهو في حالة هياج وغضب.

أمر ولدَه أن يضع خرطوم الماء الكبير في الخزان الرئيس المملوء بالماء، وبدأ في ضخه داخل الخزان حيث تختبئ.

علت صرخات والدتها وأخواتها، أما هي فتلقت سيل الماء المتدفق بذهول، هل سيغرقها حقًا؟! لكن لماذا؟ لماذا؟!

تدفق الماء بقوة، ورغم تسربه من الثقوب الكثيرة في جداران الخزان إلا أن الماء ارتفع سريعًا ليغطي ساقيها.. وسطها.. صدرها.

وانتفضت واقفة، لا.. لن تموت غرقًا أبدًا، ستقاتل من أجل أن تعيش بطريقتها وليس بطريقة والدتها.

ما إن ظهر رأسها من فتحة الخزان حتى رماها والدها بالشبشب الذي يرتديه وهو يصرخ فيها: "سأغرقك يا

عاصية الوالدين، يا مفضوحة، فضحتِني بين الرجال وأغرقتِني بين المصائب".

حاولت جاهدة الخروج، لكنه أعادها بعنف محاولًا إغلاق باب فتحة الخزان فيما هي تدفعه بكل عناد وإصرار، كان الماء يرتفع بسرعة بسبب اتساع الخرطوم واندفاع الماء من الخزان الكبير المرتفع.

انزلقت والدتُها تقبل ركبتيه وهي تتمسك به أن يشفق على شباب ابنته، وحذت بقية نسائه والأطفال حذوها في التوسل إليه.

كان جادًا في إغراقها، وكانت جادَّة في المقاومة، دفعت الغطاء مستغلة عرقلة والدتها لساقيه، وانقضت على يده لتعضها بقوة.

دفعت جسدها بقوة خارج الخزان، واستطاعت التدلي بنصف جسدها خارجه، فيما والدها يدفع والدتها بعنف عن ساقيه، فقد أدرك أنها تعيقه عمدًا ولا تتوسله.

سقطت فردوس على الأرض منهكة عاجزة عن مزيد من الهروب أو المقاومة، ضربها برجليه ويديه بغلّ شديد، والعائلة بأكملها تحاول فصله عنها بمشقة قبل أن ينهض ليقول وأنفاسه تتقطع من الإجهاد:

- ستتزوج غدًا هذه المفضوحة رغمًا عنها.

استلقت على ظهرها تئن بوجع، خائرة القوى يفتك بها اليأس.. "لم يترك لي أبي الخيار أبدًا" حدثت نفسها دون دموع أو بكاء.

استكانت تمامًا لمشيئة والدها طوال اليوم، وحين هجع الجميعُ بعد سهر الليلة الماضية وتعب النهار تسللت خلسة من بيت والدها، لقد سمعت قصصًا كثيرة عن فتيات هربن في ثياب الرجال؛ لذا حملت كيسًا فيه ثيابها وما حصلت عليه من ذهب زواجها، كان هذا قرار فضيحتها القاصمة كما تخيلت.

الجميع غارق في النوم بعد إنهاك الليلة الماضية ونهار هذا اليوم؛ حتى والدها لعله غارق في النوم بعد أن أنهكته بالسهر وضربها.

في حوش البيت ارتدت من ثياب والدها غترة قديمة وثوبًا أبيض لم يعد يتسع له، واحتزمت بجنبية قديمة رماها منذ زمن طويل لها نصل أكله الصدأ.. وغادرت إلى المجهول.

****

الآن وهي تملأ استمارة امرأة تشبهها في بلاد غريبة.. تذكرت وهي تسطر قصتها في مكتب المنظمة الحقوقية التي لجأت إليها بعد شهور طويلة كامرأة

تعرضت للتعنيف والتهديد بالقتل طمعًا في حماية حياتها،

كان هذا قبل أن تصبح ناشطةً في مجال حقوق المرأة تتصدر قنوات الإعلام وتدعو إلى حرية المرأة.

لم تتطرق لتفاصيل تلك الشهور المريرة، ماذا يعنيهم في المنظمة كل ذلك الخوف والحزن والألم الذي كواها؟ ماذا يعنيهم كل ما لاقت فتاة أرادت أن تعيش فقط؟!

واجهت الحياة بمفردها ولم تصادف سوى الأسوأ من البشر، لقد أدركت أن طريقها الوعر لا يخلو من صنفين: رجالٍ يرغبون في استغلالها جسديًا أو نساء يرغبن في استغلالها ماليًا؛ لذا حرصت أن تكون رجلًا وامرأة عندما يقتضي الحال.

يكفيهم تلك الخطوط العريضة لمعاناة خاضتها روحها قبل جسدها، رغم أن ألم الأرواح لا يقاس بمقاييس الجسد.

لطالما فكرت في العودة إلى بيت والدها كي تعيش مثل أمها مستورة بظل أبيها، لكنها تتذكر أنه أراد إغراقها لرفضها الزواج أمام المأذون، وتثق أنه الآن سيشويها حية بعد فضيحة هربها من البيت، فكيف تجازف بالعودة ودمها مهدور؟!

سينتشر خبر هروبها بين الناس مهما حاول أن يخفيه داخل جدران البيت، فنساؤه كثيرات، وستشمت إحداهن من فضيحته بابنته قائلة:

- لقد فضح الكثيرات بتطليقهن، فعاقبه الله بابنته.

ولا شيء يخيف أباها ويقتله كحديث الناس حول شرفه ومحارمه، لا شيء يهمه إلا ما يقوله الناس وكيف ينظرون له، وليته كان يخشى ظلم بناته وينظر إليهن بعين الرحمة.

لقد وجد الناس الكثير ليتحدثوا عنه حين نزعت نقابها وظهرت على شاشة التلفاز تتحدث عن حرية الفتيات وحقوقهن الطبيعية المهدورة.

ليس عليها سوى الصمود أمام نفسها، أما أمام أهلها فقد سقطت تمامًا من حساباتهم وانقطعت صلتهم بها.

هكذا هي فكرة مجتمعها عن المرأة، يراها فضيحة مستورة برجل فقط، ويدفعها هذا الرجل دفعًا كي تصبح فضيحة.

حملتك في قلبي

لم أكن وحدي في تلك الحجرة، كنا أمهات كثيرات، أو هكذا خُيّل لي من شدة فرحتي، كنا من دول مختلفة تجمعنا السعادة والانتظار لهذه اللحظة المرتقبة.

رغم التوتر والقلق، إلا أن الفرحة كانت هي الطاغية، أخيرًا سأحتضن طفلي!

بعد عشرين عامًا من الانتظار والتعب والترقب "أخيرا سأملأ جوفي الفارغ بك يا صغيري.. أخيرًا سنلتقي"

كانت المرأة قبلي قد أتي دورها، فدخلت الحجرة التي نُصوّب إليها نظراتنا، كنت أفكر أني سأدخل تلك الحجرة أيضًا وأخرج أمًا تحتضن طفلها لأول مرة.

حين رأيت الطبيب يقبل نحوي وعلى وجهه معالم الحزن والارتباك، وقفت متلعثمة يجول في خاطري كل شيء إلا ما يريد قوله، انتظرت حديثه وقد اشتد قلقِي وتوتري أكثر.

أخبرني بإنجليزيته ذات اللكنة الألمانية معتذرًا، والألم يرتسم على وجهه أن الحرارة ارتفعت بشكل غير طبيعي ليموت أطفالي الثلاثة.

لم يكملْ كلامه لأنني لم أسمع، لقد انطفأ الفرح في قلبي، وسقطت أرضًا غائبة عن كل شيء.

"ولدي الحبيب أو ابنتي الحبيبة! لست أدري، فلم يمهلني القدر كي أعلم ماذا كنتَ، لكنك تظل تلك السعادة التي انتظرتها عشرين عامًا على هيئة طفل".

أكتب لك رحلتي في البحث عنك، فقد كانت معارك نضال للحصول عليك؛ كي تعلم أنت وكل الأبناء أي معاناة يمكن لقلب الأم أن يتحملها حتى تشرق ابتسامة أطفالهن في الحياة.

لقد تزوجت أباك بعد قصة حب نادرة الحدوث في زمننا ذاك، كنا من أوائل الشباب المحظوظين الذين حصلوا على منح دراسية خارج الوطن.

ولم يكن غريبًا أن يحدث التوافق بيننا في الغربة، وتصبح الزمالة حبًا ثم زواجًا مَلَأهُ التفاهمُ والسعادة، كان أبوك سندي وكل أهلي في غربتنا، ولكي تكتمل سعادتنا لم نقرر تأخير الإنجاب، إلا أن الحمل الأول لم يأتِ إلا بعد عودتنا إلى أرض الوطن، ومن أجل هذا الحمل تنازلت عن أحلام العمل بشهادتي التي تغربت من أجلها واكتفيت بانتظار طفلي الأول.

الطفل الأول! إنه ذلك الأمل الذي تخشى عليه كل العمر وقد تنتظره أيضا كل العمر؛ الفرحة الأولى والكبرى.

ولم أكن محظوظة كفاية، فقد أُجهض الحمل دون أسباب واضحة.

رغم حزني الشديد إلا أن اهتمام والدك خفف عني فقدي، بل هون عليَّ الأمر وغضب لحزني الشديد، وزاد إصراراي على أن أسعده بطفل يملأ فراغ اشتياقنا للإنجاب.

مهما كان حب الرجل للمرأة يظل الطفل هو العروة التي توثق شقَّي الثوب ببعضهما وثاقًا أقوى.

وانتظرت الحمل الثاني الذي تأخر عامين آخرين، كنت أشعر أن النساء تحمل الأجنة في أرحامهن لكنني كنت أحمل جنيني في قلبي مباشرة.

ومرت الشهور الأولى كالحلم، بذلنا أنا وأبوك كل ما في وسعنا ليستمر، لكن الجنين نزل في شهره الرابع وكان حزنًا عظيمًا.

لم يخفف أحدنا عن الآخر لثقل حزننا وخيبتنا معا، ولم يحدث حمل آخر لسنوات طويلة، وكان ينبغي علينا السفر للعلاج لتبدأ رحلة معاناة قدومك.

في أول سفر للعلاج في الهند قيل لنا إن إمكانية الحمل صعبة، فقناة فالوب ممزقة تمامًا، وتحتاج إلى عملية جراحية، وخضعتُ لإجراء العملية بصبر وكلي أمل أن يُكَلَّلَ صبري برؤيتك يومًا.

ولم يحدث حمل خلال سنوات أخرى، مهما وصفتُ لك محطاتِ الألم والخيبة فيها فلن يصلك ذلك الشعور المغرق في الخيبة الذي صاحبني كل لحظة وأنا أنتظرك.

أن تنتظر شيئًا كل هذا العمر وتستيقظ كل يوم على أمل أن يحدث ولا يحدث.. كم من الخيبات تجرعتها بتقدم العمر!

وأشفقَ على قلبي والدُك، وقررنا السفر مرة أخرى للعلاج، وهذه المرة إلى ألمانيا لزرع طفل أنابيب كحلٍّ أخير.

وتهلل قلبي وانتعش الأمل فيه أكثر، فكثير من الحالات الميؤوس منها استطاعت الحصول على أطفال بهذه الطريقة.

خضعت لفحوصات كثيرة أكدت أن كلّ شيء في جسدي سليم لحدوث الحمل، ولو كان هناك فحوصات تجري لقلبي لقياس عاطفة الأمومة لصدمتهم نتائجها،

فأنا أحمل في قلبي عاطفة مئات الأمهات من الشوق لاحتضانك.

كنت أتساءل ماذا لو لم تُتَحْ الفرصة للسفر للدراسة قبلًا وتعلم لغة تساعدني على التفاهم مع الناس والأطباء في لحظاتي العصيبة وأنا بمفردي أحيانًا.

فقد تقرر حقني بهرمونات قلبت حياتي وحالتي النفسية رأسًا على عقب.

أحيانًا كان موعد الحقنة في ساعة متأخرة من الليل ووالدك نائم، فأرفض إيقاظه، وأضطر للذهاب إلى المشفى البعيد بمفردي مسافة طويلة في بلد أوربي غريب.

وأعود لأبكي شعوري بالوحدة والاكتئاب في غربتي هذه، ربما بسبب الأدوية، فيما يبدو لي أبوك غير مهتم مثلي، غير مبالٍ أتيت مني أم من أخرى، وكان هذا يزيد في قلقي وعصبيتي معه، حتى أصل إلى مرحلة الاختناق من شدة الصداع. كنت أعاني مشاكل جسدية كثيرة، وأشعر أني أزداد وزنًا، أعاني قلة في التبول والنوم والرغبة في التقيؤ.

رغم أنه يبذل جهدًا في تهدئتي بحجة أن هذا عمل الهرمونات فقط وليس الغيرة والخوف من فقدكما معًا.

لقد كنت أعيش على أمل أن نعود كعائلة أكثر عددًا، وكنت أقول للطبيب أن يعملوا على تلقيح أكثر كمية من البويضات، كنتُ قادرة على حمل أطفال عشرين عامًا مضت من عمري دونهم.

كنت أراجع المشفى لأخذ الحقن مع نساء أخريات مثلي، جمعنا الشعور بالشوق للأمومة واحتضان طفل من أجسادنا وأرواحنا.

نلتقي في كل موعد نتجاذب أطراف الحديث عن معاناتنا وأمنياتنا.

من تلك النسوة سيدة ألمانية تأتي كل مرة برفقة زوجها، إنهما من أولئك الأزواج الذين يدخلون حجرة الولادة معًا، يقبض كفها طوال الوقت وأظنه لن يتركها حتى آخر لحظة، سيلد معها ذات الطفل على سرير المستشفى حين يأتي وقت الولادة.

عندما نصل بأحاديثنا إلى وقت الولادة نبدو كأننا نختصر الزمن لطي معاناة انتظارنا، نتحدث عن الولادة كمكافأة لنهاية انتظار، لم يكن يشغلني التفكير بتلك الآلام التي تتحدث عنها النساء أبدًا، ليس لأني قد لا أقوم بولادة طبيعية، بل لأني مررت بآلام أشد من ألم الولادة، أقل هذه الآلام هي آلام الجسد.

كان هناك أيضًا سيدة أخرى من بلد عربي، لكنَّ العجيب أن لديها في البيت ست فتيات، وعجزت عن الحمل بسبب مشاكل الولادة الأخيرة، وزوجها يتمنى ولدًا ذكرًا.

هذا الأمر أثار غرابة صديقتنا الألمانية كثيرًا، لكنني كنت أتفهم قلق السيدة العربية وترقبها مثلنا، فالرجل الشرقي ما زال يرى وجود الولد لا يعادله وجود ست فتيات في البيت، كان استغرابي حول لماذا لم يتزوج عليها بحجة إنجاب الذكر، لكنَّ عجبي زال حين علمت منها أنها تملك أموالًا طائلة وعقارات، ففهمت حرص زوجها عليها، وحرصها هي أيضًا على انجاب ولد.

ظل تفاؤل صديقتي الألمانية يمنحني الأمل والثقة، فقد حدثتني أنها أعدت هي وزوجها حجرة الطفل كما تقول، اشتريا كل مستلزمات الطفل حتى الملابس التي تنفع للجنسين، كان شغفهما وتفاؤلهما يبعث على الاطمئنان، بخلافي فقد كان القلق يستبد بي كثيرًا، لكنه قلق ممزوج بالثقة المطلقة في نجاح العملية.

وأتي الموعد المرتقب، رغم خضوعي للتخدير الكامل لسحب البويضات إلا أن روحي كانت متيقظة تشعر بتلك اللحظات العصيبة، كان جزؤك مني يغادرني،

وسيعود بعد أيام مكتملًا بجزء أبيك، وستكبر في قلبي كل يوم.

سنتقاسم الغذاء وننام معًا، ويجري في عروقنا ذات الدم.

رغم التشنجات التي صاحبتني لساعات عقب العملية إلا أنني كنت متفائلة بما سيحدث، كان لدي ثقة عمياء أننا سننجح.

وكان على والدك اصطحابي ذلك اليوم كي يتم التلقيح مني ومنه.

وكان الانتظار الأشد توترًا في حياتي، لكنه لحسن الحظ لم يستغرق سوى يومين، أبلغنا الطبيب بعدها أن ثلاث بويضات تم تخصيبهن، وخلال يومين آخرين سينقل أطفالي إلى رحمي.

اقترح الطبيب نقل بويضة واحدة إلى الرحم والاحتفاظ ببويضتين في حال التجميد احتياطًا، أخبرني أني في عمر لا يسمح بحمل متعدد الأجنة.

فوافقت رغم أني كنت أود لو أملأ جوفي بكم الثلاثة، وسأتحمل كل شيء من أجل أن تكونوا بخير وتصلوا إلى الدنيا بصحة جيدة.

لقد كنت أنتظرك بكل الشغف يا ولدي، أفرش لك جوفي بحب ليس كحب أحد، فالأمهات تحمل أبناءهن أجنة في بطونهن تسعة أشهر، ثم تحمله بعد ميلاده في قلبها كل العمر، وأنا حملتك في قلبي منذ البداية وحتى آخر العمر.

ذلك اليوم لم أكن وحدي في تلك الحجرة، كنا أمهات كثيرات، أو هكذا خُيّل لي من شدة فرحتي، كنَّا من دول مختلفة، تجمعنا السعادة والانتظار لهذه اللحظة المرتقبة، وكانت صديقتي الألمانية أيضًا مع زوجها تمنح تفاؤلها للجميع حتى والدة الفتيات الست.

وحين أخبرني الطبيب بلكنته الألمانية أن الحرارة ارتفعت وماتت البويضات الثلاث سقطت أرضًا فاقدة للوعي والنطق، لم أصرخ حتى لشدة صدمتي.

عندما استيقظت كانت النساء تحيط بي بنظرات مشفقة، والممرضة التي تحاول إيقاظي تتمتم بكلمات المواساة بلغتها.

كنت أشفق على نفسي أيضًا، فلن أحظى بك أبدًا رغم كل المحاولات المرهقة، كانت دموعي تتحدث عما أكابد فقط، وكان أبوك صامتًا حزينًا أيضًا لكن ليس كحزني حزن أحد.

والتفت حولي لأرى صديقتي الألمانية كانت تحمل ذات حزني وتواسيني أيضًا.

أخبرتني أن الأجنة التي تنتظرها أيضًا ماتت.

دعتني إلى منزلها وذهب أربعتنا بخيبتنا، كل زوج يحمل في جوفه مرارة تفيض فيواسي بها الزوج الآخر.

تناولنا الغداء في منزلهم، في الحقيقة يا ولدي، لا أدري هل تناولت الغداء فعلًا، فما زلت في بعد آخر من اللاشعور.

وحين أرتني حجرة الطفل بكينا معًا، بل بكيت كل ما مضى من حزن في لحظة واحدة، لكنها مسحت دموعها بابتسامة حزينة، وقالت لي إنها لن تخوض هذه التجربة مرة أخرى وأردفت:

- سنتبنى طفلًا رضيعًا ونربيه كابن لنا، أظن هذا العمل أكثر جمالًا من إنجاب طفل، فنحن نسدي معروفًا لطفل لا أبوين له.. ما رأيك أن تتبنيا أنتما أيضًا طفلًا عربيًا مثلكما، أظن الأطفال دون آباء كثيرون أيضًا.

كم تأثرت يا ولدي بحديثها، ربما لهذا يقال أن الغرب يملك إنسانية أكثر منا كعرب.. ربما لمثل هذه الأفعال.

شرحت لها حساسية الأمر لدينا، وأننا كشعوب عربية ليس لدينا أطفال تخلى عنهم آباؤهم، لكن الكثير فقدوا هؤلاء الآباء في الحروب، وأن لدينا طرقًا أخرى لكفالة الأيتام.

قضينا مع هذه الأسرة وقتًا جميلًا لكنني كنت أعرف أن وجعًا وحزنًا ينتظراني ما إن أخلو لنفسي في نهاية المطاف.

لقد قرر والدك ألا نحاول أيضًا مرة أخرى، وأنه سعيد بوجودي في حياته بصحة جيدة وهذا يكفي.

وعدنا إلى أرض الوطن، كنت أدرك يقينًا أنني لن أواجه فقد وجودك في حياتي وحدي، فقد عزم والدك على الزواج في أعماقه هكذا كنت أشعر.

ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، فقد تزوج بعد عودتنا بأشهر، وكاد حزن زواجه أن ينسيني حزن فقدي لك.

لكنني وأنا أحمل طفله الأول من امرأة أخرى تذكرت كلام صديقتي الألمانية عن التبني.

حقا أبناؤه الأربعة لديهم أم تحبهم، لكن لا بأس أن يكون لهم أمٌّ ثانية، خاصة وهم ينادونني "ماما سلوى"، لقد كنت أراهم أنت يا ولدي.

عائلة

لشهور طويلة تعبت من عدّها لم أكن أسمع صوتي.

حتى أنه في بعض الأحيان كان يصدر مني صوت مرتفع كانفعال نحو أمر ما ألبث أن أقف له مفزوعة من مقعدي حين يصدم سمعي بشكل مباغت في صمت الحجرة الضيقة التي أسكنها.

أتناول وجبتي الوحيدة فيكبر في أذني صوت مضغي للطعام وخشخشة الملعقة في الطبق وأتذكر وجبات الطعام في منزل العائلة الكبير الذي لا يشبه هذه المساحة المربعة التي أسكنها.

الوجبات التي لا يمكن خلالها أن تسمع صوتك بين كل الأصوات المتحدثة في ذات الوقت بهدوء صاخب لن يفهمه من لم يعش في عائلة كبيرة.

أنا الآن أملأ منزلي الذي يتكون من حجرة صغيرة في ركن منها حاجز قصير كمطبخ وفي الركن الآخر حمام ضيق وأفتح نافذة المكان إلى شرفه صغيرة بعرض الحجرة؛ كانت الشرفة هي المتنفس الوحيد في هذه المساحة المخنوقة.

هناك ضيق فعلا لكن في غربة واسعة. وكنت أهرع إلى كتبي وأبحاثي كي أنسى أني وحيدة في زحام مدينة أوربية لا تتعرف على أحد.

يبدو أنني هربت أكثر مما ينبغي!

نعم هربت من قيود العائلة التي لا تنتهي؛ عائلة كبيرة لها تقاليدها الخاصة والعامة تنتزعك من خصوصيتك وتؤخر انجازاتك وأعمالك بمراسمها وأحداثها المتجددة وتفرض عليك نمط حياة لا تريده في قرارة نفسك.

كم أتعبني هذا الحال وكم أرهقني هذا الزحام لأسرتنا الكبيرة المتشعبة في ضجيج الإجازات والمناسبات والواجبات العائلية التي تبدأ من حيث تنتهي.

يمتلئ بيتنا الكبير بالصغار المزعجين والكبار المتطلبين فأنسى نفسي وطموحاتي وأحلامي الشخصية لذا قررت الهرب بعيدا.

كنت أحتاج إلى مساحة من الخصوصية ومسافة تفصلني عن تدخلات الجميع في كل شيء ابتداء بماذا أرتدي في المناسبة الفلانية وماذا أفعل في اليوم العلاني وانتهاء باختياري لشكل مستقبلي وماذا سأصبح.

كنت أحتاج لأخذ قرارات بمفردي؛ لإنجاز عمل وحدي مهما كان تافها!

أحتاج إلى مكان أرتب فيه نفسي كيف أشاء وأرتب أولوياتي أنا وليس اقتراحات الجميع.

وهاجرت للدراسة والتخصص تلاحقني الدعوات بالتوفيق والعودة إلى أحضان العائلة.

لكنني في قرارة نفسي كنت أتوق للانفصال والحياة بشكل مختلف دون ارتباطات الأسرة التي ملأت وقتي فلم تترك لي شيئا .

في بداية وصولي إلى هنا كنت استمتع بكل لحظة حرية دون التزام بواجبات أسرية فلا ضيوف ولا مناسبات ولا آراء في شؤوني الخاصة .

كنت أخرج وقت أشاء أطوف الشوارع منفردة استكشف ما حولي بلهفة.

في سبيل هذه الحرية رفضت زيجات اقترحتها الأسرة من رجال يعدون أحلاما لفتيات أخريات.

لقد رفضت لأنني بقبول هذا الزواج كنت سأضع حجر أساس حياة راكدة لا تختلف عن حياة أخواتي وعماتي وخالاتي وستكون الاجتماعات العائلية هي أجمل ما يحدث لي مثلهن تماما.

استمر هذا النعيم من الحرية شهورا فقط شهورا معدودة ثم زحفت الرتابة إلى حياتي ومعها غول الوحدة المخيفة.

وفي أول وعكة صحية عرفت ماذا يعني أن تكون وحيدا في غربتك بعيدا عن الأشخاص الذين يهتمون لأمرك فعلا .

ماذا يعني أن تمرض وتعرف أن لا أم ولا أخت ولا أخ سيطرق باب حجرتك ويسهر معك ليل مرضك. لا أحد سيعد لك الشوربة الساخنة أو يحكم الغطاء حول جسدك المرتجف.

لا أحد يدري بك أو أين أنت مهما حاول البعض فعل ذلك. لا أحد سوى قلوب أفراد عائلتك البعيدة المشتاقة الملتاعة لسماع صوتك المتعب.

كنت أشعر أن أبناء بلدي في غربتهم جزر نائية عن بعضها وأن ما نسمعه عن تلاحم أبناء الوطن الواحد هو مثل كل الشعارات المعلنة خال من الصحة. تعرفت على أصدقاء كثر لكنه تعارف لا يتجاوز زمالة عمل أو دراسة لا يمكن أن تتحول إلى رغبة في المشاركة لاهتمامات بعضنا البعض كما يفعل أبناء الأسرة الواحدة.

بقيت هكذا كما كانت تصور لي خيالات أمنياتي حرة دون ارتباطات أو التزامات لسنوات دراستي وكل علاقاتي سطحية لا أشارك سوى نفسي في غربتي.

حتى أرهقتني هذه الوحدة الطاغية واشتقت لزحام الأهل الذين يتحدثون لغتي ويهتمون لشؤوني.

كنت أهرع إلى أي تجمع لجالية بلدي كأني أعود إلى بيتنا الكبير وألتقي أسرتي الحقيقية.

وفي وقفة احتجاجية ضد الحرب تقاطر لها أبناء الوطن من كل مدن المهجر. تعرفت على "منير ."

أدركت أنه الشخص الذي أرغب أن نتشارك الحياة معا وكنت أخشى أنه لا يشعر نحوي هكذا خاصة أنه يعمل في مدينة أخرى غير التي أقطنها أنا.

لقد كان اهتمامه بي ذلك اليوم صادقا نابعا من حرص حقيقي كأننا نعرف بعضنا منذ الصغر أو أن علاقة أقوى تربطنا. كأننا من عائلة واحدة؛ هكذا شعرت.

ظل تواصلنا معا لشهور مغلف باهتمام ومحبة نقية من أي مآرب أخرى وفي أعماقي تتعالى رغبة ملحة أن نكون معا كعائلة فعلا.

لكن أمورا كثيرة تصّعب هذه الأمنية التي سيطرت على كل عقلي واهتمامي.

فأنا مرتبطة بعمل جيد في المدينة التي أقطنها حصلت عليه بمشقة كبيرة وهو كذلك يعمل في مدينته بوظيفة جيدة تتيح له مساعدة عائلته في الوطن.

ورغم شعوري أنه يكنّ في نفسه ذات الرغبة في الارتباط إلا أنه متردد لسبب لا أفهمه!

وكان عليّ كأنثى أن أشجعه لفتح الحديث حول علاقتنا كي ينهي تردده؛ لقد سيطرت عليّ فكرة الزواج التي كنت أستبعدها لسنوات من عمري.

أصبحت أرى شهادتي العليا ووظيفتي المرموقة إنجازا عاديا في وحدتي هذه وأرى النجاح الكبير أن يكون لي كل هذا ويكون لي عائلة أجتمع بها حول مائدة صاخبة بالضحكات وليس صوت ملعقتي الوحيدة في طبقي الوحيد.

نعم كبرت وصرت أثق الآن أن النجاح الذي يستحق الإشادة هو وصول الفتاة إلى أحلامها الشخصية ونجاحاتها مع تكوين عائلة تؤازرها وتمنحها حبها وتجعلها أولوية في اهتماماتها.

لا أستطيع أن أحترم سيدة تضحي بعائلتها من أجل طموحها أو فتاة تتنكر لواجباتها من أجل نفسها.

تحقيق النجاح علو يحتاج إلى جناحين تحلق بها المرأة هما عائلتها وطموحها.

المجد لتلك التي لا تضحي بأحدهما من أجل الآخر؛ المجد لتلك التي توازن التحليق بكلا الجناحين معا. من أجل نفسها أولا كي لا تمضي بين الناس مكسورة الجناح.

وكان لي ما أتمنى أخبرني "منير" عن رغبته في زواجنا لكن علينا أن نرتب وضعا يناسبنا معا دون تضحية قد تؤثر مستقبلا على زواجنا.

وفي أول إجازة سنحت سافرنا معا إلى الوطن وتقدم لخطبتي وصنعنا زفافا جميلا بحضور عائلته وعائلتي التي أسعدها تحليق عصفورة جديدة من فتيات الأسرة إلى عشها الجديد وكأنني لم أغب عنهم سنوات الدراسة وكأني أغادرهم الآن فقط.

وعدنا إلى الوطن البديل عقب الزفاف؛ وصار هناك طبقين للطعام وملقتين لكن الأجمل هو وجود شخصين معا يتحدثان طوال الوقت عن كل ما مرّ في حياتهما حتى التقيا شخصا واحدا.

وكانت المهمة الأصعب هي ترتيب وضع يناسبنا معا؛ بادرت أنا بطلب إجازة دون مرتب كي أنتقل معه إلى مدينته وفي شقته الصغيرة التي تشبه شقتي قضينا عاما من أجمل أعوام العمر فقد حل علينا في نهايتها عضوا جديد هو ابنتي " وئام"

في العام التالي أصبح الوضع صعبا مع ازدياد نفقاتنا وتخصيص جزء من راتبه لوالديه في الوطن.

حاولت البحث عن عمل في نفس المدينة فلم أجد عملا مناسبا وكأن الغربة تأبى إلا أن تخلص في تعاملها تلقيت رسالة حول إمكانية عودتي إلى عملي السابق وسافرت مع ابنتي على أن نلتقي بزوجي نهاية كل أسبوع حتى نجد حلا لهذا الشتات داخل الشتات.

سافرت مدينتي الأولى وعدت لشقتي الضيقة التي اتسعت في عيوني مع صوت "وئام" وهي تفرش ألعابها فلا تترك لي موطئ قدم.

رغم كل متاعبي وأنا أذهب بوئام إلى الحضانة في طريقي إلى العمل إلا أن عودتي مساء صارت مختلفة صرت أتحدث مع صغيرتي ماذا سنفعل حين يأتي والدها نهاية كل أسبوع وكم هو جميل أن يملأ البيت بوجوده.

في كل غربتي لم أشعر بعظمة أي نجاح كنجاحي في صنع عائلة..

الفهرست

ثلاث كعكات ٧

زوايا مختلفة ١٧

اخراج فاشل ٢٣

الهروب إلى الزنزانة ٣٢

لحظة شغف ٤٣

البحث عن رجل ٥٣

المجنونة ٦٧

عدالة النقاء ٧٥

أين الله ٨٧

القوادة ٩٨

المتحرش ١٠٤

الشاذ ١١١

فضيحة ١٢١

حملتك في قلبي ١٣٨

عائلة ١٤٩

حتى الآن لم أنسَ منظر تلك الندبة على ظهر شادية, لم تكن ندبة عادية لقد كانت عضة أو نهشة عميقة وواضحة لفم متوحش, ما زالت محمرة الأطراف يظهر أثر الأسنان والتجعد المشوه للجلد, أيقنت أن هذه الإصابة لم تَجِدْ عناية طبية, فالتأمت بهذه الطريقة المشوهة.

فطنت شادية إلى أني لمحت ندبتها, فازداد احتقانُ وجهها وسرعة تلفعها بقميصي الذي ناولتها إياه, وساد الوجوم بيننا قبل أن أذهب إلى المطبخ لإعداد كوبَي عصير.

ولأول مرة أجدني أفتح مصراعي ذلك النقاش الذي استثقله, أشعر أن خلف شادية سرًا ما, يجعلها ناقمةً في هذا الجانب بالذات, وهي تتمنى الحديث معي حوله؛ لأنني من ذلك النوع الذي يحب الآخرون أن يلقوا بحمولتهم بين يديه لأنه يلقيه خلف ظهره ولا يهديه لأحد أبدًا.

أسرار الأشخاص بالنسبة لي تُنسى, لأنها فقط لا تعنيني, وأقصى ما أبذله لمن يفضي بها إليَّ هو التعاطف والاستماع ثم النسيان, إلا سر شادية الذي أصبح يعنيني فجأة.

..من الكتاب